الفهرس

أضواء على مشكل التعليم بالمغرب :

٥ التعميم والأطر

للدكتور محمد عابد الجابرى

لقد ظل «مبدأ» التعميم يشكل المظهر الرئيسي لمشكل التعليم منذ الاعلان عن الاستقلال الى اليوم . وكما أكدنا ذلك من قبل (١) ، فان هذا «المبدأ» لم يكن سوى ترجمة لواقع فرض نفسه ، واقع الضغط الشعبى الهائل الذى مارسته الجماهير الشعبية بكيفية فعالة ، غداة الاستقلال ، ولسنوات عديدة ، على السلطات الحاكمة من اجل توفير المقاعد اللازمة لقبول «جميع» الاطفال الذين كانوا يومئذ فى سن الدراسة .. لقد اصبح تعميم التعليم اذن ، مطلبا شعبيا ملحا ، لم تفرضه الدعاية السياسية أو الحزبية ـ التى من طبيعتها أن تكو محدودة النطاق فى بلاد متخلفة كبلادنا ـ بقدر ما فرضه تطور العلاقات الطبقية والصراعات الاجتماعية ، الشيء الذى اعطى لهذا المطلب دلالة خاصة لم تخف أبعادها الاجتماعية والسياسية على السلطة الحاكمة والنخبة «المسيرة» يومئذ .

والحق انه على الرغم مما قد يكون هناك من دعاية سياسية ، ذات خلفيات ايديولوجية معينة ، حاولت أن تستغل الموقف لهذا الفرض او ذاك ، فان مشكل التعميم قد فرض نفسه ـ على الاقل فى السنوات الثلاث الاولى من الاستقلال ـ كقضية وطنية لم يكن فى مستطاع أى كان ، التقليل من شأنها ولا التقاعس عن المساهمة فى

١ ـ أقلام : العدد ٥ ـ مارس ١٩٧٣ .

حلها ، ولو بمجرد ابداء الرأى وتقديم المشاريع ·· ودون اللجوء الى «محاكمة النوايا» ، يمكن التأكيد بدون تردد ، ان الجميع كان مقتنعا بضرورة حل هذا المشكل المتفاقم فى اتجاه ارضاء المطامح الشعبية ، ولو بكيفية نسبية ومؤقتة ·

نعم ، لقد كان هناك ، يومئذ ، من لم يتردد فى ابداء تخوفه من «خطر» تعميم التعليم بهذا الشكل العام الشامل ، ولكن العناصر الوطنية والتقدمية التى كانت آنئذ تحتل بعض مراكز المسؤوليات ، لم تتردد من جهتها فى المبادرة الى اتخاذ جميع التدابير الممكنة لتلبية هذه الرغبة الشعبية الجامحة ، بل هذه الضرورة الوطنية الملحة · وهكذا فتحت أبواب المدارس لاكبر عدد ممكن ، واتخذت من التدابير المادية ما مكنها من الشروع فعلا فى تعميم التعليم على أوسع نطاق · لقد كان التصميم الثنائى ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ أول خطوة فى هذا الصدد، ثم جاءت الخطوة التالية ، الخطوة الكبيرة والجريئة حقا ، متمثلة فى التصميم الخماسى الاول ١٩٦٠ ـ ١٩٦٤ الذى جعل هدفه الرئيسى فى هذا الميدان ، تحقيق تعميم التعليم بكيفية شاملة ، اى العمل على أن يلتحق بالمدارس ، عند نهاية التصميم ، جميع الاطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين ٧ سنوات و ١٤ سنة · لقد كان من المفروض، اذن ، حسب هذا التصميم ، أن تستوعب المدارس الحكومية سنة ١٩٦٥ جميع الاطفال البالغين السن الدراسى (٧ ـ ١٤) مع انقاذ ما يمكن انقاذه من الاطفال الذين تجاوزوا هذه السن · نعم انالتصميم لم يتبن «مشروع سلك الانقاذ» الذى هيأته يومئذ الهيأة النقابية لرجال التعليم بتعاون مع المنظمة الطلابية ، نظرا لضخامة تكاليفه ، العائدة الى ضخامة عدد الاطفال الذين فاتهم ، أو كان من المنتظر أن يفوتهم ، الركب خلال سنوات التصميم ، ولكنه مع ذلك لم يهمل المشكل اهمالا كاملا ، بل سعى الى ايجاد الحلول التى كان ينتظر منها ، لو طبقت ، أن تحقق كثيرا وبكيفية جدية ، من حدته وتفاقمه · وفضلا عن هذا وذاك جعل هذا التصميم من بين أهدافه

قبول نسبة ٤٠ فى المائة من تلامذة الابتدائى فى السلك الثانوى ، وذلك على اساس عددهم يوم كانوا فى التحضيرى ، لا على أســاس عددهم عند بلوغهم قسم المتوسط الثانى كما تم تحوير ذلك فيما بعد، والفرق كبير بين النسبتين كما سيتجلى لنا فى الصفحات القادمة • أما الستون فى المائة الباقية فقد تقرر توزيعها كما يلى : ٢٠ فى المائة يكررون ، و ٤٠ فى المائة يلتحقون بالاقسام التكميلية والمهنية • كل ذلك فى اطار خطة تحررية للتنمية الاقتصادية ، تحرص على توسيع مرافق العمل والتشغيل حرصها على توسيع نطاق التعليم ، واعــداد الاطر الفنية التى تستلزمها التنمية المنشودة •

لقد كان من الممكن اذن ، بل من الاكيد ، لو طبق هذا التصميم واستمر العمل فى نفس الاتجاه الذى رسمه ، أن يكون المغرب غير ما هو عليه اليوم •• ولكن ••

ولكن لنترك ما كان سيكون ، ولنقصر اهتمامنا على ما هو كائن بالفعل ، وفى ميدان التعليم بالذات ، هذا الميدان الذى كان وما يزال، المرآة التى تعكس بصدق وأمانة أحوال الميادين الاخرى ، السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية والثقافية •

- ● -

اين وصلت مشكلة التعميم الان ، وبعد ١٨ سنة من الاستقلال ؟ ماهى المراحل التى اجتازتها ، وما هى آفاق المستقبل ؟

للجواب عن هذه الاسئلة ، ومعالجة القضايا المتفرعة عنها ، يمكن أن نسلك احدى طريقين : اما الرجوع الى التصاميم المختلفة التى عرفها المغرب منذ بداية الاستقلال الى اليوم (١) وتتبعها فى أهدافها ومنجزاتها ، سالكين هكذا طريق التيقنوقراطيين فى الدراسة والبحث وفى هذه الحالة قد تقبل ـ ضمنيا على الاقل ـ هذه التصاميم علــى

١ ـ التصميم الثنائى ٥٨ ـ ٥٩ والخماسى الاول ٦٠ ـ ٦٤ والثلاثى ٦٥ ـ ٦٧ والخماسى الثانى ٦٨ ـ ٧٢ والخماسى الثالث ٧٣ ـ ٧٨ •

علاقتها ، فنتاظر ضمنها ونندمج في انساقها فتنطـلي علينا خلفياتهـا الايديولوجية ونقبل رؤاها ، فنسلم بالنتيجـة التي تتـردد الان : «ليس في الامكان ابدع مما كان» ٠٠ واما النظر الى التجربـة التـي خاضها المغرب في ميدان تعميم التعليم ، باعتبارها كلا واحدا ، يخضع في تطوره لمؤشرات معينة ، سياسية بالدرجة الاولى ، وفي هذه الحالة يتحتم علينا أن ننظر الى المسالة التي نحن بصدد معالجتها ، من زاوية تطور الوضعية العامة في البلاد ، وبالخصوص تطور العلاقات بيـن القوى المختلفة ، الحاكمة منها والمحكومة ٠

لقد اخترنا ، في هذه الدراسة ، الطريق الثاني ، لانـه فـي نظرنا ، الطريق الوحيد الذي بامكانه ان يضع أمام أعيننا المشكـل في حقيقته وعمقه ، وبكامل أبعاده ٠ واذن ، فلنتابع سيرنا في نفس الطريق ، ولنبدأ بالتذكير ببعض الحقائق المعروفة :

ليس هناك من شك في أن المغرب قد شهد منذ بداية الستينات تحولا خطيرا يتجلى بالخصوص في انفكاك ما تبقى من ذلك «الحلـف الوطني» الذي ربط مختلف القوى الوطنية من ارستقراطية تقليديـة، وبورجوازية وطنية ، وجماهير شعبية (٢) ٠ لقد أدت الصراعات التي شهدتها صفوف «النخبة المسيرة» غداة الاستقلال ، وبفعل عوامـل مختلفة ، ذاتية وموضوعية ، الى بلورة الهوة التي تفصل بين الحاكمين والمحكومين ، وبالتالي استقلال السلطة الحاكمة بنفسها ، ونـزول مختلف القوى الوطنيَة ـ بدرجات متفاوتة ـ الى ساحة المعارضة ٠

ودون الدخول في تفاصيل الاحداث التي يعرفها الجميع ، يمكن القول بكيفية عامة ، ان المغرب قد وجد نفسه غداة الاستقلال أمـام اختيار أساسي يفرض نفسه ، ولا يسمـح بالانتظـار : أما معالجـة الوضعية التي خلفها الماضي (عهد الانحطاط وعهد الحماية) معالجـة جذرية ، وبالتالي القيام ، بأسرع ما يمكن ، بتقويض البنيات المختلفة

---

٢ ـ أنظر الحلقة قبل الماضية ، العدد الخامس من هذه المجلة مارس ١٩٧٣ ٠

ـ والاقتصادية منها خاصة ـ التى ورثناها من عهود الانحطاط وعهد الاستعمار ، وبناء علاقات جديدة تستجيب لمطامح شعبنا وتعطى لمفهوم الاستقلال مدلوله الشعبى التقدمى .. واما اتخاذ ما يلزم من القرارات والتدابير التى تضمن استمرار الوضع القائم ، أو على الاقل عدم اتجاهه الوجهة التى قد تجعله يحمل بين طياته بذور انهياره . ان وقوف المغرب أمام هذا الاختيار الحاسم قد جعل من المستحيل استمرار «الحلف الوطنى» المذكور بصووة أو بأخرى . لقد كان لابد من الانفكاك والانفصال .. كان لابد من حدوث تغييرات اساسية فى فى الخريطة السياسية ، تغييرات تعكس الى حد ما العلاقات الجديدة التى أبرزها عهد الاستقلال بعدما ظلت مستترة وهامشية أيام الكفاح الوطنى ، الجماعى ، ضد سلطات الاحتلال .

فى بداية الستينات ، اذن ، وقع الاختيار ، بل فرض هذا الاختيار من طرف الوضع نفسه : طبيعته ومكوناته ونوعية العلاقات السائدة فيه . لقد تم العدول عن المعالجة الجذرية للمشاكل القائمة ، واصبح الصراع من أجل «اثبات الوجود» يطغى على هذه «المشاكل نفسها ، فلم تعد تحظى بالاهتمام الا من أجل استغلالها ، أو تسكينها، أو الجامها .

وقع الاختيار على تجميد الوضعية .. ولكن بما ان الامور كانت تشق طريقها ، خاصة عند نهاية الخمسينات ، نحو تهيىء الظروف الملائمة لاحداث التغييرات الجذرية التى يتطلبها تحقيق المطامح الشعبية ، فان الموقف كان يتطلب ليس فقط «الضغط على الفرامل» ، بل أيضا الرجوع الى الوراء بأسرع ما يمكن ، وبالقدر الذى تسمح به الظروف و «الامكانيات» المتوفرة آنئذ .

من هنا شهد المغرب سلسلة من التراجعات فى مختلف المجالات، فافرغ التصميم الخماسى من محتواه الحقيقى ، بعدما تعرض لتحويرات وتعديلات عديدة . وفى المجال الذى يهمنا ، مجال تعميم التعليم ، يمكن أن نسجل بسرعة الوقائع الآتية :

١ ـ لقد وقع التراجع فى مفهوم التعميم ذاته : فبينما كان المقصود من تعميم التعليم قبل الستينات ، ضمان المقاعد المدرسية لجميع الاطفال الذين تتراوح اعمارهم بين ٦ سنوات و ١٤ سنة ، والعمل على انقاذ الاجيال الضائعة المتخلفة عن الركب الدراسى ، مع الاجتهاد فى تعميم دروس محاربة الامية ، اذا به يصبح منحصرا فقط فى «قبول الاطفال الذين هم فى سن الدراسة ، حسب الامكانيات المتوفرة» •

ولكن من هم الذين «فى سن الدراسة» بالضبط ؟

ـ فى بداية الاستقلال ، وحتى نهاية الخمسينات ، كان يراد بهم جميع الاطفال الذين تتراوح اعمارهم ما بين ٦ سنوات و ١٤ سنة •

ـ فى التصميم الخماسى الاول ، حدد الاطفال الذين هم فى سن الدراسة بكونهم الذين تتراوح أعمارهم ما بين ٧ سنوات و ١٤ سنة • باعتبار السنة السابعة ـ لا السادسة ـ هى أكثر ملاءمة (؟) من الناحية «التربوية» فى البدء فى تعليم الطفل •

ـ فى ١٣ نوفمبر ١٩٦٣ صدر ظهير ينص على أن التعليم الزامى بالنسبة للاطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين ٧ سنوات و ١٣ سنة • وقد ترك هذا الظهير لوزير التعليم امر تحديد المناطق التى ستطبق فيها «اجبارية التعليم» ، فى السنة الموالية (أكتوبر ١٩٦٣) وكذلك امر تعيين تواريخ تطبيقه فى المناطق الاخرى ، مما جعل «اجبارية» التعليم تبقى معلقة بامكانيات وزارة التعليم ذاتها •• وبالتالى تظل «اجبارية» اسمية فقط •

ـ فى يوم ٦ ـ ٤ ـ ١٩٦٦ قدم وزير التعليم انذاك وهو الدكتور بنهيمة «منهجا جديدا» فى التعليم ، فى ندوة صحفية ، ثم فى خطب القاها فى عدة قاليم • لقد حدد هذا «المذهب الجديد» فى التعليم السن الدراسية ما بين ٧ سنوات و ١٢ سنة •

لقد اتضح انذاك أن الدولة لم تعد تستطيع متابعة «تعميم» التعليم بنفس الوتائر السابقة • وهكذا وقع الالحاح بالخصوص على استحالة تعميم التعليم لان ذلك «سيتطلب ميزانية لن تلبث أن تصبح معادلة لضعفي الدخل القومي الاجمالي» !؟ ولذلك ، فانه «مهما تكن الاصلاحات والاختيارات التي ستتخذها فانه من اللازم ان لاتخرج عن نطاق الحدود المالية المخصصة للتعليم» • وحسب هذه «الحدود» كان يبدو من «المعقول» ومن «اللازم» ان لايقبل من الاطفال الجدد سوى ٣٦ ٠٠٠ تلميذ سنويا ، ولمدة عشر سنوات • لقد كان «المذهب الجديد» ، اذن ، يرمي الى «تضييق التعليم من الاساس» مع اقرار الازدواجية ، بصفة رسمية لعدة عقود أخرى من السنين (٢٥ ـ ٣٠ سنة على الاقل) •• كل ذلك مع التحذير من «بطالة المثقفين» والتصريح بان «الثقافة العليا حلية للفكر ولا موجب لنشرها في الوقت الراهن»•

تلك هي الخطوط العريضة للمذهب التعليمي الجديد الذي جندت له الاوساط الرسمية امكانياتها للدفاع عنه وابراز «واقعيته وموضوعيته» •

لقد أثار هذا «المذهب» ردود فعل مضادة كثيرة من مختلف الهيآت الوطنية السياسية منها والنقابية ، فتم السكوت عنه ، ولكن آثاره بقيت واضحة ولسنوات عديدة ، كما سنلاحظ ذلك بعد •

٢ ـ ان هذه السلسلة من التراجعات في تحديد السنوات التي يشملها التعميم (١) ، من عمر الطفل ، يجعل من الصعب الاعتماد على الاحصائيات الرسمية في تحديد نسبة الملتحقين بالمدارس من مجموع الاطفال البالغين سن الدراسة ، طوال الثماني عشرة سنة الماضية • ومع ذلك فانه بالامكان تقديم صورة مجملة عن هذا الموضوع من خلال المعطيات التالية :

---

١ ـ تحدد الاوساط الرسمية حاليا سن الدراسة الابتدائية ، وبالتالي فترة التعميم ، ما بين ٧ سنوات و ١١ سنة •

ـ فى السنة الدراسة ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ كان مجموع الاطفال الذين اعتبروا فى سن الدراسة يبلغ ٠٠٠ ٨٠٠ ١ طفل • وقد التحق منهم بالمدارس ءانذاك نحو ٠٠٠ ٥٣٠ طفل ، (الاطفال المغاربة فقط) • فالنسبة ، اذن ، كانت أقل قليلا من ٣٠٪ (مقابل ١٧٪ سنة ٥٥ ـ ٥٦) • وبعد سنتين ، اى عام ١٩٦٠ (العام الاول للتصميم الخماسي الاول) ، بلغ مجموع الاطفال الذين كانوا يومئذ فى سن الدراسة نحو ٠٠٠ ٩٦٠ ١ طفل كان منهم بالمدارس ١١٢ ٧١٩ طفلا اى بنسبة ٣٦٪ تقريبا • وقد ارتفعت هذه النسبة الى ٤٧٪ عند نهاية التصميم الخماسي المذكور ، اذ بلغ عدد الاطفال البالغين سن الدراسة سنة ٦٤ ـ ٦٥ نحو ٠٠٠ ١٥٠ ٢ طفل كان يوجد منهم بالمدارس ١٦٥ ٠٢٦ ١ طفد • ومنذ ذلك الحين ونسبة الذين يدرسون الى الذين لايدرسون من الاطفال الذين تتراوح اعمارهم ما بين ٧ سنوات و ١٤ سنة ، فى انخفاض مستمر ، الى ان استقرت فى السنوات الاخيرة فى حدود ٣٣٪ • وهكذا ففى السنة الجارية (١٩٧٣) يقدر عدد الاطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين ٧ سنوات و ١٤ سنة بنحو ٠٠٠ ٦١٠ ٣ طفل يوجد منهم بالمدارس الحكومية ٠٠٧ ٢١٦ ١ ، أى بنسبة ٣٣٪ • (ترتفع هذه النسبة الى ٣٥٪ اذا أدخلنا فى الحساب تلامذة المدارس الحرة) •

وهكذا يبدو واضحا أن تعميم التعليم لم يبلغ فى أية سنة من السنوات الماضية منذ استقلالنا نسبة ٥٠٪ ، بل ان هذه النسبة قد استقرت فى الغالب فى حدود ٣٣٪ • ومعنى هذا أن «تعميم التعليم» الذى جعل هدفا رئيسيا من أهداف «سياستنا التعليمية» قد اسفر عن النتيجة العامة التالية : ثلث الاطفال فى المدارس وثلثان فى الشوارع • هذا ما كان عليه الامر فى نهاية الخمسينات وبداية الستينات ، وهذا هو نفسه الذى عرفته نهاية الستينات ونعرفه بداية السبعينات •

واذا تركنا جانبا نسبة الذين يدرسون الى الذين لايدرسون من الاطفال البالغين سن الدراسة (٧ ــ ١٤) ، وقصرنا اهتمامنا على الثلث الذي تحويه مدارسنا ، فانه بالامكان ابراز التراجع في تعميم التعليم من خلال الوقائع التالية :

● في العام الدراسي ١٩٥٥ ــ ١٩٥٦ كانت المدارس الابتدائية الرسمية تضم ٢٠٧ ٤٢٨ تلميذا فأصبحت سنة ١٩٦٥ ــ ١٩٦٦ تاوى ٨٢٦ ٠٣٠ ١ تلميذا ٠ وهذا يعني أن حجم التعليم الابتدائي الرسمي قد ازداد خلال السنوات العشر الاول من استقلال بلادنا بنسبة ٥٠٠٪ اى انه تضاعف ٥ مرات ٠ أما في العشر سنوات التالية ١٩٦٥ ــ ١٩٧٥ فان رقم التضعيف لن يتجاوز ١،٣٦ (يتوقع التصميم الخماسي الحالي أن يبلغ عدد تلامذة الابتدائي الرسمي في السنة الدراسية ١٩٧٥ ــ ١٩٧٦ نحو ٠٠٠ ٤٠٠ ١ تلميذ ، وذلك في احسن الاحوال ، وفيما اذا ظلت وتائر النمو كما كانت في السنوات الخمس الماضية) ٠ وبعبارة أخرى لقد ازداد حجم الابتدائي الرسمي في السنوات العشر الاولى من الاستقلال بنحو ٣٢٨ ٨٢٣ تلميذا في حين لن يزداد حجمه في السنوات العشر التالية الا بنحو ٠٠٠ ٣٧٠ طفل ، هذا مع العلم بأن عدد البالغين سن الدراسة يتضخم سنة بعد أخرى ٠

● يمكن التعبير عن هذه الحقيقة ، حقيقة التراجع في ميدان التعميم بمقارنة معدل الزيادة في حجم الابتدائي خلال فترات معينة : فمن سنة ١٩٥٨ الى سنة ١٩٦٤ ظل معدل الزيادة السنوية في حجم الابتدائي يفوق ٠٠٠ ٨٠ طفل ، في حين انه منذ عام ١٩٦٥ الى اليوم لم يتجاوز معدل الزيادة المذكورة ٠٠٠ ١٨ طفل ، هذا في الوقت الذي يزداد فيه حجم الاطفال البالغين سن الدراسة (٧ سنوات) بمعدل ٠٠٠ ٧٥ طفل سنويا ٠

● بالامكان أيضا اكتشاف نفس الحقيقة من خلال مقارنة عدد الملتحقين بالمدارس الابتدائية والثانوية والمعاهد العليا ، مع

مجموع سكان المغرب فى فترات معينة • ففى سنة ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤ كان يقدر سكان المغرب بنحو ٠٠٠ ١٠٠ ١٢ نسمة كان يوجد منهم فى مؤسساتنا التعليمية (الابتدائية والثانوية والعالية) ٦٥٦ ٢٢٥ ١ تلميذا وطالبا • بمعنى أن أكثر من ١٠٪ من السكان كانوا يومئذ يرتادون المدارس والكليات •• أما اليوم ١٩٧٣ وسكان المغرب يربون على ١٧ مليون نسمة فانه لايتواجد منهم فى مختلف مؤسساتنا التعليمية الابتدائية والثانوية (الرسمية والحرة) والمعاهد العالية ، سوى ١٩١ ٦٣٣ ١ تلميذا وطالبا ، أى أن النسبة هى الان أقل من ١٠٪ •

ـ لننظر الان الى الموضوع من زاوية اخرى ، زاوية «تعميم» التعليم بين البادية والمدينة • وهنا لن نحتاج الى بذل مجهود كبير لاثبات التقهقر الخطير الذى عرفه ، ويعرفه ، تعليمنا فى البادية والمناطق القروية • ان الجميع يعرف أن عددا كبيرا من المدارس قد اقفلت ، وأن مآات من الاقسام قد اهملت وهجرت ، فتهدمت أو اصبحت ملاجىء للحيوانات • والاحصائيات الرسمية نفسها تؤكد هذه الحقيقة • وعلى سبيل المثال نشير الى أن عدد المدارس الفرعية التى تتشكل منها المجموعات المدرسية فى البادية قد انخفض من ١١٩ ٤ مدرسة سنة ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ الى ٤٩٦ ٣ مدرسة سنة ١٩٧٠ ـ ١٩٧١ • وأن عدد تلامذتها قد انخفض خلال الفترة نفسها من ٩٧٨ ٤٢٢ تلميذا الى ٠٠٠ ٣٧٨ تلميذ ، وبذلك نزلت نسبة تلامذة البادية والمناطق القروية من ٤٠،٣٪ سنة ٦٧ ـ ٦٨ الى ٣١،٩٪ سنة ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣ • واذن فلقد انخفض عدد تلاميذ المدارس القروية بنسبة ١٠٪ فى السنوات الخمس الماضية ، ومن المنتظر ، حسب التوقعات الرسمية ، أن يزداد عددهم انخفاضا فى السنوات المقبلة ، اذا سارت الامور على ما هى عليه الان •

وبالجملة ، فاذا كان ثلثا (⅔) سكان المغرب يعيشون فى البادية والمناطق القروية ، والثلث الباقى فى المدن ، فان هذه النسبة معكوسة

فيما يخص توزع الاطفال بين المدينة والبادية • ان من الثابت الان ، ومنذ عدة سنوات ، أن تلامذة البادية يشكلون ثلث حجم تعليمنا الابتدائي ، والثلثان الباقيان في المدن ، وأكثر من ذلك فان مدارس البادية هي على العموم مدارس مبتورة ، لاتتعدى في الغالب صفا أو صفين (التحضيرى وحده ، أو هو والابتدائي الاول فقط) • وفي هذا الصدد نشير الى دراسة قامت بها المصالح التابعة لوزارة التعليم عام ١٩٦٦ لمعرفة حال مدارس المناطق القروية • لقد تبين من هذه الدراسة أن عدد هذه المدارس كان يومئذ ٤٠٤٤ مدرسة ، منها ٣٠٢٥ مدرسة تشتمل فقط على صف أو صفين ، في حين لايتجاوز عدد المدارس التي تشتمل على الصفوف الخمسة (من التحضيرى الى المتوسط الثاني) : ٢٣٩ مدرسة • وهذا يعني أن ٧٥٪ من مدارس البادية ، لا تشتمل الا على الصفوف الاولى ، وان ٩٤٪ منها هي مدارس مبتورة • (٦٪ فقط من مدارس البادية كانت كاملة ، أى كان بامكانها تقديم مرشحين الى الشهادة الابتدائية) •

هذا ما كان عليه الحال عام ١٩٦٦ • ومن المحقق أن الامور قد تدهورت كثيرا منذ ذلك الوقت ••

- ● -

هذا فيما يخص المظهر الخارجي ، أو الناحية الكمية ، من تعميم التعليم • أما الناحية الكيفية ، أو «الحياة الداخلية» لنظام تعليمنا ، فهي تنطوى على حقائق أليمة مفجعة تجعل الحديث عن الكم مجرد لغو ••• وهذه بعض الحقائق باختصار :

١ ـ فيما يخص التكرار : ان متوسط نسبة المكررين في جميع اقسام الابتدائي في ارتفاع مستمر : ٢٧،٣٪ سنة ٦٥ و ٢٨،٥٪ سنة ٦٦ و ٢٩،٧٪ سنة ٦٧ • وما بين ٣٠ و ٣١٪ في السنوات التالية • تسجل هذه النسبة أعلى مستوى لها في المتوسط الثاني (قسم الشهادة الابتدائية) حيث قفزت نسبة المكررين من ٤٤،٧٪ سنة ١٩٦٥ الى ٥٠،١٪ سنة ١٩٧١ ، الشيء الذى ينعكس آثره على الاقسام

الثانوية . فالتلاميذ الذين يجتازون مباراة الدخول الى الثانوى ، هم في معظمهم من الذين كرروا سنة أو سنتين أو ثلاث سنوات في الابتدائي . وفي هذا الصدد نشير الى بحث أجرته المصالح التابعة لوزارة التعليم عام ١٩٦٨ لمعرفة نسبة المكررين في أقسام الملاحظة (السنة الثانوية الاولى) . لقد اتضح من هذا البحث أن ما لايقل عن ثلاثة أرباع التلاميذ قدكرروا على الاقل مرة واحدة في المتوسط الثاني .

ان هذه النسبة الهائلة من التكرار قد جعلت التعليم الابتدائي يصاب بورم يوهم بكبر الحجم ، في حين انه ، في الواقع ، جسم هزيل تشكل نسبة الدم الجديد فيه ، مقدارا ضئيلا . ان الابحاث الاخيرة تشير الى أن نسبة المكررين فيما يلحق حجم التعليم الابتدائي من زيادة ، قد ظلت تساوى الذين منذ عام ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ . وهكذا فاذا لاحظنا مثلا أن حجم التعليم الابتدائي الرسمى قد ازداد هذه السنة بالنسبة للسنة الماضية ، بنحو ٧٠٠ ٤٤ فان عدد المكررين من بينهم يقرب من ٠٠٠ ٣٠ تلميذ (كان عدد تلامذة المدارس الرسمية الابتدائية سنة ٧١ ـ ٧٢ يبلغ : ٣٠٧ ١٧١ ١ فاصبح هذه السنة ٧٢ ـ ٧٣ يبلغ ٠٠٧ ٢١٦ ١ تلميذ) . واذن فالزيادة الحقيقية في حجم الابتدائي هذه السنة لا تتعدى ٩٠٠ ١٤ تلميذ جديد (هذا في الوقت الذى يزداد فيه حجم الاطفال البالغين سن الدراسة (٧ سنوات) بما يزيد عن ٠٠٠ ٧٥ طفل كل سنة) .

٢ ـ وفيما يخص الضياع ، (ونقصد به الانقطاع عن الدراسة بسبب الطرد أو العجز) ، تكشف لنا الاحصائيات الرسمية عن حقائق مذهلة . من بينها أن عدد التلاميذ الذين يضيعون (يطردون في الغالب) بين الاقسام الابتدائية الثلاثة الاولى (التحضيرى ، الابتدائي الاول ، الابتدائي الثاني) قد ظل يتراوح منذ ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ ما بين ٥٣ ألف و ٨٠ الف تلميذ كل سنة . أما عدد الذين يضيعون في القسمين التاليين (المتوسط الاول والثاني) فهو أكبر من ذلك كثيرا كما سيتضح لنا عند الحديث عن الانتقال من الابتدائي الى الثانوى .

واذا نظرنا الى هاتين الظاهرتين (التكرار والضياع) من زاوية المقارنة بين البادية والمدينة فاننا سنكتشف انه بقدر ما يسود التكرار في مدارس المدن ، يهيمن الضياع في مدارس البادية • وهكذا فبينما يرتفع معدل التكرار في المدن الى ٣٥٪ ينخفض في البادية الى ٢٩٪ ، ولكن معدل الضياع يرتفع في البادية الى ٣٠٪ لينخفض في المدن الى ١٠٪ • وبكيفية عامة يمكن القول أن ما لايقل عن ٥٢٪ من تلامذة الابتدائي يكررون او يضيعون قبل الوصول الى قسم الشهادة •

٣ ـ ان ارتفاع نسبة التكرار والضياع بالشكل الذى شرحناه من شانه ان يؤثر ، بطبيعة الحال ، على انتاجية تعليمنا ، ويجعل تكاليف الاطفال الذين يلتحقون بالثانوى تكاليف باهظة جدا • ولكى نعطي للقارىء صورة تقريبية عن مدى هزال انتاجية تعليمنا الابتدائي نشير الى انه من بين ٢٢٠ ٠٠٠ تلميذ شاركوا في مباراة الدخول للثانوى في يونيه ١٩٧٠ لم يقبل منهم في الثانوى سوى ٥٠ ألف تلميذ ، اى بنسبة اقل من ٢٣٪ • اما الباقى فقد توزع كما يلي : ١١٥ الف سمح لهم بالتكرار (ربما للمرة الثانية او الثالثة) و ٥٥ الف طردوا (الغالب أنهم كرروا أكثر من ثلاث مرات) • واذا أضفنا الى هذا العدد ما لايقل عن ٧٦ ألف تلميذ ضاعوا في الطريق قبل الوصول الى قسم الشهادة ، تبين لنا أن عدد الضائعين في تلك السنة كان لايقل عن ١٣١ ٠٠٠ تلميذ (دخلوا المدارس ثم خرجوا منها بدون نتيجة) • واذن ، فان ما نفق على هؤلاء ، بالاضافة الى ما نفق على زملائهم المكررين ، يجب أن يحسب على الملتحقين بالثانوى ، الشيء الذى يجعل تكاليف هؤلاء باهظة جدا •

ولاعطاء القارىء فكرى اوضح عن الموضوع نشير ـ وهذا تقدير رسمي ـ الى انه من بين كل ١٠٠٠ تلميذ جديد يدخلون التحضيرى لايصل منهم الى قسم الشهادة سوى ٦٠٩ تلميذا ، منهم ٣٢١ ينتقلون الى الثانوى ، والباقي يكررون أن يغادرون المدرسة (يطردون) • وهكذا فاذا اعتبرنا المدة العادية ـ النظرية ـ للدراسة الابتدائية ،

وهي مدة خمس سنوات، واذاحملنا النجاح تكاليف الضياع والتكرار، فاننا سنجد أن كل طفل يصل الى قسم الشهادة الابتدائية يكون قد كلف ما قيمته ٩،٥٧ سنوات دراسية ، أى ضعف المدة العادية النظرية اما التلميذ الذى ينجح فى مباراة الدخول للثانوى فانه يكلف عمليا ما قيمته ١٨،١٧ سنة دراسية • أى ٣،٦ مرات القيمة العادية النظرية •

وهكذا فان كل طفل يلتحق بالثانوى يكلف ثلاثة أضعاف ونصف ما يجب أن يكلفه ، بمعنى أن نفقات التعليم الابتدائى لاتنتج الا اقل من ثلث ما يجب أن تنتجه •

– ● –

هذه النتائج المزرية يمكن ارجاعها الى عوامل عديدة : عدم استقرار المناهج التعليمية ، اقرار الازدواجية ، ضعف مستوى المعلمين ، عدم تعاون البيت مع المدرسة •• الخ • ولكن هذه العوامل فى نظرنا لايمكن أن تفسر وحدها هذه الظاهرة الخطيرة • هناك ، فيما نعتقد ، عاملان رئيسيان يجب اعطاؤهما الاولوية عند التفكير فى أسباب هذه الظاهرة • هذان العاملان ، هما : تفكك مدارس البادية ، ونظام التناوب فى مدارس المدن •

لقد رأينا قبل أن أكبر نسبة ، من الضياع انما نجدها فى البادية ، وهذا راجع ـ كما ذكرنا قبل ـ الى أن الاغلبية الساحقة من المدارس الموجودة فى المناطق القروية هى مدارس مبتورة (٦٪ منها فقط توصل الى قسم الشهادة) • ان معظم تلاميذها ، اذن ، يستحيل عليهم اكمال دراستهم الابتدائية ، الا اذا انتقلوا الى المراكز الحضرية • وهذا ان تيسر لابناء الموسرين منهم ، فهو لايتيسر مطلقا للاغلبية الساحقة من جماهير الفلاحين الفقراء الذين يصعب عليهم ـ وأحيانا يستحيل عليهم ـ كسب الحد الادنى من القوت اليومى بكيفية منتظمة • هذا بالاضافة الى أن التلميذ فى البادية يضطر فى الغالب الى أن يقطع على رجليه مسافات طويلة قد تتعدى عشر كيلو مترات قبل الوصول الى مدرسته !

أما فى المناطق الحضرية ، فانه على الرغم من أن جل مدارسها مكتملة وقريبة نسبيا من سكنى التلاميذ ، فانها تشتغل فى الغالب ضعف ما يجب أن تشتغل بسبب نظام التناوب • لقد تبين من دراسة حديثة ان نسبة التناوب في مجموع أقسام الابتدائي هى ٣/٥ (فى كل خمسة أقسام توجد ثلاثة تشتغل بالتناوب) • وبعبارة أخرى ان نسبة التناوب فى الاقسام الابتدائية تتجاوز الان ٦٠٪ فى حين انها كانت عام ١٩٥٩ لاتتعدى ٤٤٪ •• واذا كان هذا يعكس عجزا خطيرا، ونقصانا متزايدا فى ميدان التجهيز ، وخاصة البناءات المدرسية ، فانه يكشف عن حقيقة ملموسة ، وهى ان جل تلامذتنا يرتادون المدارس في أوقات غير ملائمة وغير طبيعية ، مما يجعل مقام التلميذ فى الشوارع أثناء النهار أطول من مدة اقامته بالمدرسة والمنزل معا •

- ● -

وضعية غير طبيعية ، اذن ، تلك التى يوجد عليها تعليمنا الابتدائي ، وضعية شاذة جدا يمكن اجمال معالمها الرئيسية فى الحقائق التالية :

١ ـ انه تعليم لايضم سوى ثلث الاطفال الذين يجب أن يضمهم فى حال التعميم الحقيقى الشامل •

٢ ـ ثلثا هذا الثلث من أبناء المدن ، والباقى للبادية ، والوضع الطبيعي يقتضى العكس •

٣ ـ انه تعليم لاينمو الا ببطء شديد ، ١٦ ألف كل سنة ، فى حين يزداد حجم التلاميذ البالغين سن الدراسة (٧ سنوات) بما لايقل عن ٧٥ ٠٠٠ طفل كل سنة •

٤ ـ هذا النمو البطىء جدا يرجع الى عجز مادى (نقص خطير فى البنايات المدرسية والاطر التعليمية) ، والى ورم التكرار •

٥ ـ وأخيرا انه تعليم غير منتج • لاينتج الا ثلث ما ينبغى ، (بناء على حجمه الفعلى ، وتسع (٩/١) ما ينبغى ، بناء على حجم الاطفال

البالغين سن الدراسة) • والسبب تفكك مدارس البادية واقرار التناوب في المدن •

ولكن ما قيمة هذا الثلث الاخير •• وما مصيره ••؟

- ● -

لقد تحدثنا لحد الساعة عن التعليم الابتدائي وحده ، وعلينا من اجل استكمال الصورة ، ان نلقى نظرة سريعة على ما يجرى في الثانوى •

اذا كان عدد المقبولين الجدد في الثانوى قد عرف ارتفاعا متزايدا حتى نهاية الخمسينات وبداية الستينات ، فقفز من ٦٣٠ ١٠ تلميذ جديد سنة ١٩٦٠ الى ٦٠٠ ٢٣ سنة ١٩٦٢ الى ٠٠٠ ٥٩ سنوات ٦٤ ــ ٦٥ ــ ٦٦ ، فانه قد سجل انخفاضا مطردا منذ سنة ١٩٦٧ ، الى ان استقر في السنوات الاخيرة في حدود ٠٠٠ ٥٠ تلميذ جديد ، وهو عدد يصعب تجاوزه نظرا لجمود عدد تلامذة المتوسط الثاني ، ولانعدام تخطيط جدى يهدف الى معالجة مشاكل الابتدائي التي تحدثنا عنها قبل •

ومهما يكن من امر ، فان من الثابت الاكيد ان التعليم الثانوى قد عرف هو الآخر تراجعا مطردا في عدد المقبولين الجدد ، خصوصا منذ السنة الاخيرة للتصميم الخماسي الاول • واذا أردنا التعبير عن هذا التراجع بالنسبة المئوية وجب مقارنة عدد المقبولين الجدد في الثانوى مع عدد تلامذة قسم الشهادة الابتدائية ، وفي هذا الصدد تشير الاحصائيات الرسمية الى أن نسبة الملتحقين بالثانوى من تلامذة المتوسط الثاني قد انخفضت من ٣٠٪ في بداية الستينات الى ٢٨٪ سنة ٦٦ ــ ٦٧ ، الى ٢٤٪ سنة ٦٨ ــ ٦٩ الى ٢٢٪ سنة ٧٠ ــ ٧١ • واذا استمر هذا الانخفاض على نفس الوتيرة فان عدد التلاميذ الجدد الذين سيقبلون في الثانوى عام ١٩٧٧ ــ ١٩٧٨ (السنة النهائية للتصميم الخماسي الحالي) لن يتجاوز ٧٤٤ ٣٣ تلميذا •

وهذا يعنى أن عدد التلاميذ الجدد الذين سيقبلون فى آكتوبر ١٩٧٧ (اذا سارت الامور كما سارت من قبل) سينخفض بنحو ١٥ ٧٠٠ تلميذ عن عدد الذين قبلوا فى أكتوبر ١٩٧٠ وبأكثر من ٢٥ ٠٠٠ تلميذ عن عدد الذين قبلوا عام ١٩٦٥ (نهاية التصميم الخماسى الاول) • أما التصميم الخماسى الحالى فان طموحه لايتعدى محاولة الاحتفاظ بالنسبة الحالية (التى تعتبر الان قارة) وهى ٣٢٪ ، أو ٥٠ الف تلميذ •

لقد انعكس هذا الانخفاض المطرد فى نسبة القبول فى الثانوى على حجم التعليم الثانوى ككل ، فأصبحنا أمام ظاهرة غريبة جدا • ذلك ان هرم التعليم الثانوى كان الى حدود سنة ١٩٦٦ هرما طبيعيا : قاعدة عريضة (قسم الملاحظة) ثم ضيق تدريجى فى الاضلاع (كل قسم أقل عددا من الذى قبله) الى قمة الهرم (قسم الباكالوريا) • أما فى السنوات التالية ، وخاصة عام ١٩٧٠ وما بعده ، فان هذا الهرم قد انقلب الى شكل غريب : أربع مستطيلات متساوية الحجم تقريبا (وهى تمثل قسم الملاحظة والسنة الاولى والثانية والثالثة) ثم ثلاثة أخرى تشكل شبه هرم صغير (السنة الرابعة والخامسة والسادسة) • ان هذا يعنى أن أقسام السلك الاول تشتمل على نفس العدد من التلاميذ ، مما يدل دلالة واضحة على أن التعليم الابتدائى قد كف عن النمو ـ أو كاد ـ ابتداء من عام ١٩٦٥ ، وان السلك الاول من الثانوى قد بدأ يصاب بداء «الجمود» الشىء الذى سينعكس أثره مستقبلا على السلك الثانى • واذا استمر الوضع على ما هو عليه فان جهازنا التعليمى سيصبح ـ قريبا ـ جهازا مقفلا لايتحمل أية زيادة ، هذا فى الوقت الذى ترتفع فيه نسبة المواليد ، ويزداد عدد البالغين سن الدراسة باستمرار ، وبنسبة مذهلة •

هذه الظاهرة ، ظاهرة تقلص حجم التعليم الثانوى منذ عام ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ نلاحظها أيضا عندما ندرس مسألة الانتقال من السلك الثانوى الاول الى الثانى منه • وبالفعل لقد انخفضت نسبة

الملتحقين بالسنة الرابعة الثانوية من تلامذة السنة الثالثة . انخفضت من ٤٦،٦٪ سنة ٦٦ ــ ٦٧ الى ٤٣٪ سنة ٦٧ ــ ٦٨ الى ٣٩٪ سنة ٦٨ ــ ٦٩ الى ٣٦٪ سنة ٦٩ ــ ٧٠ • لقد اسفر التصميم الخماسي الماضي اذن عن انخفاض في نسبة الملتحقين بالسلك الثاني من تلامذة السنة النهائية من السلك الاول بما لايقل عن ١٠٪ •

بالامكان أيضا اكتشاف هذه الظاهرة من خلال فحص تطور مجموع تلامذة الثانوي بمختلف فروعه وشعبه • وهكذا ، ففي السنة الدراسية ١٩٦٤ ــ ١٩٦٥ كان مجموع تلامذة الثانوي الرسمي يبلغ ١٤٦ ٥٧٥ تلميذا وقد ارتفع هذا العدد في السنة الموالية الى ١٨١ ٠٩٠ تلميذا ، أي بزيادة قدرها ٣٤ ٥٢٥ تلميذا • أما في السنة الدراسية ١٩٦٩ ــ ١٩٧٠ ، فقد بلغ مجموع تلامذة الثانوي ٢٦٣ ٨٣٣ تلميذا، ولكنه لم يتجاوز في السنة الموالية ٢٦٨ ٣٥٠ تلميذا اى بزيادة لاتتعدى ٤ ٥١٧ تلميذا • (كانت الزيادة في حجم الثانوي في السنوات التي تمتد من ٦٥ الى ٧٣ كما يلي على التوالي : ٣٤ ٥٢٥ ــ ٣١ ٠٧٥ ــ ٢٦ ٠٣٤ ــ ١٩ ١٧٩ ــ ٦ ٤٥٥ ــ ٤ ٥١٧ ــ ١٦ ٠٢٦ ــ ٢٣ ٥٢٢) •

ان انخفاض نسبة الزيادة في حجم التعليم الثانوي بهذا الشكل ، مع بقاء عدد المقبولين الجدد هو هو ، أو بانخفاض أقل ، يكشف عن ظاهرة أخرى خطيرة ، وهي ان المقبولين الجدد في الثانوي انما يحلون محل الذين ينقطعون عن الدراسة (الضياع) ، الشيء الذي يجعل من تعليمنا الثانوي أشبه ما يكون بسينما مسترسلة الارسال تدخلها أفواج وتخرج منها أفواج في أوقات مختلفة في حين يبقى عدد المقاعد ثابتا •• وبما أن «الفيلم» ممل ، ومتقطع باستمرار ، فان الغالبية العظمى من المشاهدين يغادرون القاعة قبل نهاية المشهد•

يمكن أن نلمس هذه الحقيقة المرة من خلال مقارنة عدد الملتحقين الجدد بالسلك الثانوي مع عدد الذين يغادرون هذا السلك (يضيعون) بدون شهادة • ان الارقام الرسمية تشير الى أن نسبة الضياع في الاقسام الثانوية (باستثناء قسم الشهادة الثانوية وقسم الباكالوريا)،

قد ظلت تتارجح منذ عام ١٩٦٤ ما بين ١٠٪ و ٢٠٪ ٠ غير أن النسبة الحقيقية للضياع تفوق ذلك بكثير ، اذا أدخلنا العدد الهائل من التلاميذ الذين يغادرون السنة النهائية من السلك الاول والسلك الثاني بدون شهادة ٠ ففي قسم الشهادة الثانوية قلما تنزل نسبة الضياع عن ٣٣٪ أما في قسم الباكالوريا فهي ترتفع في معظم الاحوال الى ٣٠٪ (١) ٠ ومهما يكن فان تلامذة قسم الشهادة الثانوية وقسم الباكالوريا يتوزعون ، في أحسن الاحوال ، كما يلي : الثلث يضيع (ينقطع أو يطرد) ، والثلث يكرر ، والثلث الباقي ينجح في الحصول على الشهادة ٠

ان هذه النسبة المرتفعة من التكرار والضياع في الثانوى (نحو ٦٦٪) قد جعلت تكاليف التلميذ الناجح في امتحان التخرج من السلك الذي ينتمي اليه ، تكاليف مرتفعة جدا ، مثلها مثل تكاليف النجاح في السلك الابتدائي ٠ وهكذا ، ففيما يخص السلك الاول من الثانوى تشير الدراسات الرسمية الى انه من بين ١٠٠٠ تلميذ يلتحقون بقسم الملاحظة (السنة الثانوية الاولى) لايصل منهم الى قسم الشهادة الثانوية (السنة الرابعة) سوى ٦٢٢ تلميذا ، مما يجعل الواحد منهم يكلف عمليا ما مقداره ٦،٥ سنوات دراسية (بدل أربع سنوات) ٠ أما في السلك الثانوى الثاني فان التلميذ الذى يصل الى قسم الباكالوريا (السنة السادسة) يكلف ٤،٥ سنوات دراسية (بدل ثلاث سنوات) ٠ معنى ذلك أن التلاميذ الذين يستطيعون مواصلة الدراسة الثانوية بأكملها يكلفون ما قيمته ١١ سنة عملية بدل ٧ سنوات نظرية ٠

يمكن التعبير عن هذه الحقيقة بصيغة أخرى اذا اعتبرنا أن الانتاجية القصوى تساوى واحدا (أى مائة على مائة) ٠ وفي هذه

---

١ ـ ان الاحصائيات الرسمية لاتقدم نسبة الذين يغادرون قسم الشهادة الثانوية وقسم الباكالوريا بدون شهادة ٠ ومن الصعب تقديرها نظريا لكون امتحانات الشهادتين لاتخص الرسميين وحدهم ، أى المنتمين الى مدارس ، بل يشارك فيها عدد كبير من المرشحين الاحرار ٠

الحالة ستكون انتاجية التعليم الثانوى كما يلي : ٠،٦١ بالنسبة للسلك الاول ، و ٠،٦٩ بالنسبة للسلك الثاني ٠٠ هذا اذا اعتبرنا مجرد الوصول الى السنة النهائية من هذا السلك أو ذاك ٠ أما اذا اعتبرنا النجاح فى احدى الشهادتين (الثانوية او الباكالوريا) ، فان انتاجية التعليم الثانوى ستكون فى هذه الحالة : ٠،٢ بالنسبة للسلك الاول ، و ٠،٣ بالنسبة للسلك الثاني ٠

ولعلنا نأخذ فكرة أوضح عن هذه الانتاجية الضئيلة جدا ، اذا عرفنا أن تلامذة أقسام الباكالوريا ، الذين يبلغون حاليا (٧٢ ــ ٧٣) نحو ١٣٠٠٠ تلميذ ، كان حجمهم ، هم وزملاؤهم الصغار ، يوم كانوا جميعا فى التحضيرى ، يتجاوز ٢٦٠٠٠٠ تلميذ ، وذلك عام ١٩٦١ ــ ١٩٦٢ (١) ٠

نعم ، ليس من الضرورى ، ولا من المفروض ، أن يواصل جميع التلاميذ دراستهم من التحضيرى الى الباكالوريا ، اذا كانت هناك منافذ تستقبل المتخلفين منهم فى وسط الطريق ٠ ولكن بما أن هذه المنافذ غير موجودة (حذف التعليم التقني ، والمهنى ، كساد سوق الشهادة الابتدائية و «بوار» الشهادة الثانوية ، انعدام امكانيات الحصول على عمل فى القطاع الصناعى والفلاحى ٠٠ الخ) ، فان مصير التلاميذ الذين لايحصلون على الباكالوريا ، لن يكون غير الشارع ، حيث يتسكع على الدوام أكثر من ثلثى الاطفال البالغين سن الدراسة والذين يتضخم حجمهم سنة بعد أخرى ليشكلوا فى النهاية جيشا عرمرما من الشباب الامى الضائع ، فى شعب ترتفع فيه نسبة الذين هم فى سن الدراسة الفعلية (٦ ــ ٢٥) الى ٤٥٪ ٠

ـ ● ـ

هل نحن فى حاجة بعد هذا العرض الذى قدمناه عن «مبدأ» التعميم ، الى اطالة الكلام عن «المبدأ» الرابع والاخير ، من «مبادىء»

---

١ ــ مقارنة نظرية فقط ، لانها لاتدخل فى حسابها التكرار ٠

سياستنا التعليمية ، ونعني به : «تكوين الاطر» ؟ ألا يعكس التدهور الكمي والكيفي في ميدان تعميم التعليم ، تدهورا مماثلا في ميدان الاطر ؟

لنقتصر اذن ، على نظرة موجزة نستعرض فيها حال اطرنا التعليمية ٠ وبما أن «مبدأ» تكوين الاطر كان ــ وما يزال ــ يهدف في الدرجة الاولى الى تحقيق المغربة الشاملة ــ على الاقل في ميدان التعليم ــ فلنبدأ بالبحث فيما عسى أن يكون قد أنجز في هذا المجال ٠

اذا كانت المغربة قد تحققت في الابتدائي منذ سنوات ، فان الثانوي والعالي ما زالا يضمان نسبة كبيرة من الاجانب (٥٠٪ في كل منهما) ٠ وفيما يلي ايضاحات في الموضوع :

يضم التعليم الثانوي العام ــ أي باستثناء العاملين في التعليم التقني والرياضة البدنية ، يضم حاليا (٧٢ ــ ٧٣) : ١٣ ٠٩٦ معلما وأستاذا (١) ، يتوزعون كما يلي : ٦ ١٢٧ أجنبيا (٣ ٩٨٥ في السلك الاول ، و ٢ ١٤٢ في السلك الثاني) و ٦ ٩٦٩ مغربيا (٥ ٤١٧ في السلك الاول ، و ١ ٥٥٢ في السلك الثاني) ٠ بمعنى أن الاجانب يشكلون نسبة ٤٢،٣٪ في السلك الاول ، و ٥٨٪ في السلك الثاني ٠ أما بالنسبة العامة للعاملين منهم في السلكين معا فهي تقترب من ٤٨٪ ٠ واذن فان نسبة المغربة في التعليم الثانوي لاتكاد تتجاوز ٥٢٪ ٠

هل هناك من أمل في تحسين هذه النسبة ، في اطار الوضعية الحالية التي يعيشها تعليمنا ؟ هل توحي التطورات السابقة بما يبعث على التفاؤل ؟

---

١ ــ يبلغ عدد العاملين في التعليم التقني ٥٢٧ مدرسا ، وفي الرياضة البدنية ١١٦٢ وبذلك يكون مجموع رجال التعليم في الثانوي ١٤٧٨٥ ٠ أما موظفو الادارات المدرسية فيبلغ عددهم ٥ ٧١٥ ، مما يرفع مجموع العاملين في مدارسنا الثانوية الى ٢٠ ٥٠٠ رجل وامرأة ٠

اذا نحن عدنا الى السنوات الماضية ، فاننا سنجد أن عدد الاجانب فى مدارسنا الثانوية قد ظل يزداد زيادة تكاد تساوى زيادة الاطر المغربية . وهكذا نلاحظ ، مثلا ، أنه اذا كان عدد المغاربة من رجال تعليمنا الثانوى قد قفز من ٢ ٤١٤ سنة ٦٤ ـ ٦٥ الى ٤ ٤٨٢

سنة ٦٧ ـ ٦٨ ، فان هذا العدد لم يرتفع فى السنوات الموالية الا بمقادير ضئيلة (من ٤ ٧٣١ سنة ٦٨ ـ ٦٩ ، الى ٥ ١١٣ سنة ٦٩ ـ ٧٠ ، الى ٥ ٦٨٠ سنة ٧٠ ـ ٧١) ، هذا فى حين ظل عدد الاجانب يتحرك من ٤ ٢٢٨ سنة ٦٤ ـ ٦٥ ، الى ٥ ٧٤٤ سنة ٦٧ ـ ٦٨ ، الى ٦ ٤٧٥ سنة ٦٨ ـ ٦٩ ، الى ٦ ٧٠٦ سنة ٦٩ ـ ٧٠ الى ٦ ٦٨٤ سنة ٧٠ ـ ٧١ .

ومن خلال دراسة هذه الارقام يتبين أن العلاقة بين عدد الاجانب وعدد المغاربة لاتشير مطلقا الى وجود خطة ما لتحقيق المغربة . ان نسبة المغربة فى السنوات الماضية ، لاتتبع خطا متصاعدا ، بل هى ترتفع وتنخفض دونما ضابط معين . وهكذا ، فبينما كانت المغربة فى صفوف رجال التعليم الثانوى تشكل نسبة ٤٣،٦٪ سنة ٦٦ ـ ٦٧ اذا بها تهبط الى ٣٩،٨٪ سنة ٦٨ ـ ٦٩ ، لتعود فترتفع الى ٤٠،٦٪ سنة ٦٩ ـ ٧٠ والى ٤٤،٢٪ سنة ٧٠ ـ ٧١ .. واذن ، فالتصميم الخماسى الاخير (٦٨ ـ ٧٢) لم يستطع حتى الاحتفاظ ، خلال مدته، بنسبة المغربة التى كانت قائمة عند بدايته .

هذا اذا اعتبرنا فقط النسبة العامة ، دون تمييز بين السلك الاول والثانى ، وبين من يتمتعون بدرجة أستاذ فى هذا السلك أو ذاك . أما اذا رحنا نميز فى هؤلاء الاجانب العاملين فى مدارسنا الثانوية بين من يتمتع بدرجة أستاذ وبين من يتمتع بدرجة معلم فقط ، فاننا سنجد أن أكثر من ٦٠٪ منهم معلمون فى مستوى الباكالوريا أو دونها ، وان نسبة المغربة فى صفوف أساتذة السلك الاول قد انخفضت من ٩٥،٦٪ سنة ٦٦ ـ ٦٧ الى ٦٩،٧٪ سنة

٧٠ ـ ٧١ ، ومن ٣٧،٩٪ الى ٣٤،٥٪ سنة ٧٠ ـ ٧١ في صفوف اساتذة السلك الثاني .

هذا عن المغربة ، أما عن نوعية هؤلاء العاملين كمدرسين في مدارسنا الثانوية ، باسم «المساعدة الفنية» ، فقد لانكون هنا في حاجة الى تكرار الشكوى من ضعف المستوى الثقافي والبيداغوجي لمعظمهم ، ولنكتف بالقول مجددا ان ٦٠٪ منهم هم مجرد «معلمين» في مستوى الباكالوريا أو دونها ، وانهم ، باستثناء فئة قليلة منهم ، لا يمتهنون التعليم في بلادنا الا لاحد أغراض ثلاثة : الاسترزاق ، أو قضاء فترة التجنيد العسكرى ، أو الرغبة في الحصول على مؤهلات تمكنهم من الالتحاق بسلك رجال التعليم في فرنسا بعد قضاء فترة «تدريب وتكوين» في المغرب ، يشرف عليهم خلالها المفتشون الفرنسيون التابعون لوزارة التربية الوطنية المغربية .. انها «المساعدة الفنية» في عهد الاستعمار الجديد .. ولكن هل الذنب ذنبهم ؟

أما عن المغاربة العاملين حاليا (٧٢ ـ ٧٣) في مدارسنا الثانوية فلقد سبقت الاشارة الى أن عددهم يبلغ ٩٦٩ ٦ مدرسا ، من بينهم ما لايقل عن ٥٠٠ ٣ بدرجة معلم . واذن فان نسبة ٥٠٪ من الاطر المغربية التى تمارس التعليم في المدارس الثانوية لاتتوفر على المؤهلات الثقافية التى تسمح لها ـ قانونيا على الاقل ـ بالعمل في السلك الثانوى . وتلك مسألة سنعود اليها بعد قليل .

وأما بخصوص العاملين في الابتدائي ـ وكلهم مغاربة ـ فان عددهم يبلغ حاليا ١٩١ ٣٤ (مقابل ٨٨٣ ٢٨ سنة ١٩٦٧) . وهم يتوزعون كما يلى : ٩٠،٥٪ معلمون (مقابل ٨٣،٨٪ سنة ٦٧ ـ ٦٨) و ٩،٥٪ عرفاء (مقابل ١٦،٢٪ سنة ٦٧ ـ ٦٨) . وفي سلك المعلمين نجد ٧١،٤٪ رسميون و ١٩،٩٪ متدربون و ٨،٧٪ مؤقتون .

ظاهريا ، هناك تحسن نسبي ، على الاقل في الوضعية المادية والادارية لرجال التعليم الابتدائي ، تحسن نسبى فقط . أما في

الواقع فان الوضعية المادية لرجال التعليم ـ بل لسائر الموظفين غير «السامين» ـ ما زالت دون ما تتطلبه تكاليف المعيشة التى لا تـزداد الا صعوبة وتعقيدا ٠

ولكن ، هل يعكس هذا التحول من الدرجات الدنيا الى الدرجات العليا فى سلك الوظيفة التعليمية ، تحسنا فعليا فى مستوى المهنة ؟ وبعبارة أوضح ، هل انتقال معلم ما ـ فى الظروف والملابسات التى نعرفها ـ من سلك العرفاء الى سلك المعلمين ، أو من سلك المتدربين الى سلك الرسميين ، دليل على تحسن فعلى فى مستواه الثقافى وخبرته البيداغوجية ؟

ـ ● ـ

لنترك الجواب عن هذا السؤال للمفتشين ، وللآباء والتلاميذ ، بل للمعلمين أنفسهم ، ولننتقل الى التعليم العالى الذى عرف فى السنة الماضية أزمة خطيرة رأى فيها كثير من المسؤولين مجرد «ازمة نمو» جاءت تتويجا لازمة الثانوى فى أواسط الستينات وأزمة الابتدائى فى أواخر الخمسينات وأوائل الستينات ٠

ودون التعرض هنا للاسباب الحقيقية لهذه «الازمات» ـ الشيء الذى سنتناوله فى الحلقة القادمة ـ نشير الى أن التعليم العالى قد عرف نموا ـ نسبيا ـ خلال السنوات القليلة الماضية : فلقد ارتفـع عدد طلبة الكليات والمعاهد العليا فى العام الماضى (٧٢ ـ ٧٣) الـى ٣٨٢ ٢٢ طالبا وطالبة ٠ (مقابل ١٤٨ ١٥ سنة ٧١ ـ ٧٢ ، و ٣١٠ ٧ سنة ٦٣ ـ ٦٤) ٠

واذا نظرنا الى هذه الارقام من زاوية تكويـن الاطر ، فاننـا سنلاحظ أن الاتجاه الادبى ما زال هو السائد ، على الرغم مما طرأ من تحسن نسبى ، فى السنوات القليلة الماضية ، فى نسبة المتجهين الى الكليات والمعاهد العلمية (تشكل هذه النسبة حاليا ٣٢٪ بدل ٢٢٪ سنة ٦٧ ـ ٦٨) ٠

على أن ارتفاع عدد طلبة التعليم العالي انما يرجع في الحقيقة الى تضخم حجم الملتحقين بكلية الحقوق • ومعلوم أن نسبة هامة من زبنائها موظفون يحضرون بعض الشهادات لتحسين وضعيتهم • (قد ترتفع هذه النسبة الى ٥٠٪) • ومهما يكن فقد بلغ عدد المسجلين في كلية الحقوق هذه السنة (٧٢ ـ ٧٣) ٨ ٩١٢ طالبا (أي حوالي ٤٠٪ من مجموع طلبة التعليم العالي) وذلك في مقابل ٥ ٤٤٨ في كلية الآداب و ١١٩٩ في كلية العلوم و ٢ ١١٢ في كلية الطب ، والباقي في المعاهد الاخرى : المحمدية للمهندسين ، معهد الاحصاء، القرويين، الخ ••

ومهما يكن ، فان ارتفاع نسبة المتجهين اتجاها أدبيا من بين طلبة التعليم العالي ، لايرجع ـ بطبيعة الحال ـ الى رغبة هؤلاء الطلاب ، ولا الى عجز من جانبهم عن السير في الاتجاه العلمي • ان ذلك يعود ، أولا وأخيرا ، الى «سياسة» التوجيه المتبعة في السلك الثانوي ، وهي سياسة تعكس ـ لا رغبة المسؤولين في تكثير طلاب الكليات النظرية ، التي هي دوما مصدر «ازعاج» ـ بل تعكس عجزا خطيرا في ميدان التجهيز والتاطير العلميين ، في الثانوي والعالي ، سواء بسواء •

- ● -

وبعد ، فماذا يمكن ان نستخلصه ، من نتائج أولية ، من هذا العرض السريع الذي قدمناه عن حال الاطر العاملة في مؤسساتنا التعليمية ؟

لعل أول ما يثير الانتباه هو انه ـ على الرغم من مرور ١٨ سنة على استقلال المغرب ـ ما زلنا بعيدين جدا عن تحقيق المغربة في تعلمينا الثانوي والعالي •

لقد رأينا قبل أن ما يقرب من ٥٠٪ من العاملين في مدارسنا الثانوية هم أجانب (نفس النسبة في التعليم العالي) • وبعبارة أوضح أن المغربة الشاملة لاطر تعليمنا الثانوي تتطلب حاليا تعويض ١٢٧ ٦

مدرسا أجنبيا (٩٨٥ ٣ في السلك الاول و ١٤٢ ٢ في السلك الثاني) (١) ·

هذا اذا اقتصر طموحنا على المغربة فقط ، أى على مجرد تعويض الاجانب بالمغاربة · أما اذا أردنا قصر العمل في مدارسنا الثانوية على الاساتذة فقط (دون المعلمين) فسيتحتم علينا اعادة ما لايقل عن ٥٠٠ ٣ معلم مغربي الى المدارس الابتدائية وتعويضهم بنحو ١٠٠ ٣ أستاذ مغربي للسلك الاول ونمو ٤٠٠ أستاذ مغربي للسلك الثاني · وباضافة هذا العدد الى حاجيات المغربة ـ المذكورة ءانفا ـ يتضح لنا أن تعليمنا الثانوي يعاني ـ على صغر حجمه ـ من عجز فيالاطر المغربية يقدر بما لايقل عن ٧٠٠٠ أستاذ للسلك الاول ، و ٥٠٠ ٢ أستاذ للسكك الثاني (تقصد الاساتذة المتوفرين على المؤهلات التي تسمح لهم ـ قانونيا على الاقل ـ بالانتساب الى أحد السلكين) ·

واذن ، فان «مبدأ» تكوين الاطرب ومغربتها ، قد اسفر طوال ١٨ سنة الماضية على استقلال المغرب ، عن عجز في أساتذة الثانوى يقدر بما لايقل عن ٥٠٠ ٩ أستاذ · واذا تذكرنا ما أشرنا اليه ءانفا من أن مجموع العاملين في مدارسنا الثانوية لايتعدى ٠٩٦ ١٣ مدرسا ، أدركنا هول الكارثة· ان نسبة العجز تفوق حاليا ٧٢٪ (١)·

قد نكون مشتطين في الطلب اذا كنا ننتظر من «سياستنا» في تكوين الاطر أن تنتج ما يجب ان تنتج مائة في المائة · ولذلك يصبح التنازل قليلا ـ بنسبة ٦٪ مثلا ـ شيئا «معقولا» و «واقعيا» · ومع ذلك فاننا سنجد أن «المجهود» الذي بذل في ميدان تكوين الاطر للتعليم ـ وللتعليم وحده ـ لم يسفر الا عن ثلث الحاجيات ، مثله في

---

١ ـ ذلك بقطع النظر عن الحاجيات التي يتطلبها توسيع حجم التعليم الثانوى · وهي حاجيات ستزداد ضخامة اذا نحن عملنا على تعميم التعليم الابتدائي وقبول نسبة ملائمة من تلامذته في الثانوى ·

٢ ـ معنى هذا أن المغربة الشاملة لن تتحقق ، اذا سارت الامور بنفس الوتائر السابقة والحالية ، الا بعد ٣٦ سنة أى حوالى سنة ٢٠١٠ ·

ذلك ، مثل «المجهود» المبذول فى ميدان «تعميم التعليم» الذى لم ينتج سوى الثلث • واذن ، أفلا يكفى هذا دليلا ساطعا ، على فشل نظامنا التعليمي وعدم صلاحيته ككل ؟

لعل فى الحلقة القادمة ما سيلقى مزيدا من الاضواء على هذه الحقيقة التى يعترف بها الجميع : آباء وأبناء ، مسؤولين وغير مسؤولين •

ملاحظة : جميع الاحصائيات الواردة فى هذا المقال ، احصائيات رسمية مستقاة من مطبوعات التصميم الخماسى الحالى ، ومنشورات مصلحة الاحصاء والخريطة المدرسية التابعة لوزارة التعليم •

قيد الطبع

نلفت انتباه قرائنا الكرام الى أن هذه السلسلة من المقالات حول : «مشاكل التعليم بالمغرب» ستتوقف ابتداء من هذا العدد • ونخبرهم بأنها ستظهر مع تتمتها فى كتاب تحت عنوان : «أضواء على مشكل التعليم بالمغرب» •

انتظروه قريبا ••

منشــورات « أقــلام »

ميشيل ماركوفيتش

العلم والايديولوجية

ترجمـة

أحمد السطاتى

السلسلـة الثقافيـة : ١

حسن الامرانى

يوميات مهاجر في زمن الرعب والنبوءة

(لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا ، لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة) •

قـرآن كريـم

ما أطيب العيش لو أن الفتى حجـر
تنبو الحـوادث عنـه وهو ملمـوم

تميم بن مقبل

ـ ١ ـ

عيون ٠٠ عيون
ولا شيء غير العيون
أحاول أن أقتل اللغة المخطئة
بفكر البلاد ٠٠ عيون
أحاول بقر الظلام ٠٠ عيون
أحاول ذبح الدياجير في مقل مطفأة
بعرض البلاد ٠٠ عيون
أبيع الجرائد ليلا ٠٠ عيون
أبيع الجرائد ظهرا ٠٠ عيون
أحدق في صفحات كتابي ٠٠ عيون

افكر فى حجز تذكرة بقطار الضياع ٠٠ عيون
زهور الحدائق ٠٠ عيون
بحور المجامر ٠٠ عيون
ومن خلف شباك جارتنا قد تراءت عيون
وخلف ثيابى اطلت عيون
عيون ٠٠ عيون
ولا شيء غير العيون

- ٢ -

يا أيها المسافر الغريب
أمامك المدينة
حذار أن تغريك الانوار
حذار أن تدخلها
فانها لا تقبل الغريب ليلتين
لا تمنح الغريب وجبتين
حذار أن تقربهـا
فليس تعطى الحب مرتين
صديقى المسافر الجبار
لا تنفض الغبار
وتابع السير الى مدينة الالم

- ٣ -

ألملم من عتمات الوجود
بقايا الجراح
وأنثرها حبة ٠٠ حبة ٠٠
وأزرعها فى حنايا البطاح
لعلى أنهض ذات صباح

فأحصدها ثورة طالعة
من الارض ‥ من قلبها ‥ يا بلادى ٠

- ٤ -

زمن الحب بناء متهدم
لا يرمـم
زمن الحب الحب سراب قد تلفع
بالاكاذيب ‥
وأرض غاب ضوء الشمس عنها فهى بلقع
زمن الحب بأرضى باع حلمه
وتقهقـر
زمن الحب بهذى الارض غيمة
ليس تمطر
زمن الحب استحالا
فى بلادى ، ألما ، جرحا ‥ ومالا
نحو غابات الجنون
وتهـادى
نحو دنيا الرفض جبارا فعادا
ليس يرضيه السكون

- ٥ -

تسبح الذكريات البعيدة ‥ تنسج كل عروقى
أملا راكضا ‥ نابضا بالشروق
تجعل النبض منى طريق الطريق
تسبل الجفن ‥ ينتفض الحجر
يتدلى من الشمس حبل ضياء
يتمطى ‥ يحملنى هم قومى ‥ ألبى النداء

ويهز الدعاء
خافق العالم المكتوم ·· يبتسم القدر

- ٦ -

فى غضون السنة العجفاء آتى
حجرا أحمر يذكيه لهيب السنوات
وتعود الارض غير الارض ·· تغدو خطواتى
قمرا اخضر يبنى مدة الشوق ودنيا الصبوات
يذبح الفقر ·· يقيل العثرات ·

- ٧ -

يا صاح تقدم ! لا تنظر خلفك ··
ستسيل مع الخطوات دمانا
وتولد من اتربة الاجيال منانا

- ٨ -

أتسمع وقع خطى الاولين
كصدى مطرقة
وعلى أضلعى تتكسر أعمدة المشنقة
فأقبل جرحى ·· وأبنى الغدا
ويردد وقع خطاى الصدى :
(افتحى يا برارى مصاريع أبوابك الصدئات :
ملك والفضاء خراجي ومملكتى خطواتى
ملك أتقدم ابنى فتوحى
فوق هذا الجليد المؤصل فوق الجموح) ·

- ٩ -

من فوهة الشريان
وفورة النار
تنهل أشعارى
كبقضة الاحزان

- ١٠ -

قد تجلد الاجساد
وتعظم الكـف
لكنما الحرف
أسمى من الجلاد ٠

- ١١ -

مدينتى المقبلة المنورة
ترفض أن يحكمها الغربان
ترفض أن تسرح فى ربوعها الذؤبان
وترفض الخرفان ٠
رحابها ٠٠ وعلى رحابها ٠٠ يظل للانسان ٠
أمس حلمت ثورة الطوفان :

٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

(وقيل يا أرض ابلعى
مـاءك
ويا سماء أقلعى)
وقيل كن ، فكان ٠
وانتصب الانسان ٠

- ١٢ -

وغيض الماء ..
وارتطم السفين بصخرة العالم
وراحت تعكس المرآة وجه حضارة مجدورة الاعضاء
وعبر منازل الترحال
نزعنا كل ألبسة الزمان العاقر الآثم
وأمسينا نلفع سوءة العالم
بأوراق من اليقطين .

- ١٣ -

أمشي على قلبي .. تعانقني البحار
أمشي وألتقط المحار
أمشي مع الصحراء .. ألتقط الحجار
وأراك قافلة يعذبها السفار
منبوذة بالارض وجهتك الضياع
تهفو الى لقياك أفئدة الجياع
وأحب فيك السندباد الآتي
وأكاد ألمح فوق وجهك قصتي
وأكاد أرسم في الجبين حياتي
وأروح أصلب فوق نورك ذاتي
وهناك أولد من جديد .

- ١٤ -

العالم معشوق ..
سر مغلـق

والعاشق محزون .. مرهق .
فوق جدار اللهفة مصلوب .
(ضعف الطالب والمطلوب)

وجدة : حسن الامرانى

صدر حديثا :

وثائق ونصوص

- ١ -

الاسلام منذ الانطلاقة الاولى الى نهاية الدولة الاموية

تأليف : محمد زنيبر

محتوى المجموعة :

- مقدمة عن منهاجية شرح النصوص التاريخية .
- نموذج لشرح أحد النصوص مرفقة بصورة وخريطة .
- **٩٣ نصا تاريخيا مأخوذا من أوثق المصادر وأقدمها ، مبوبة حسب موضوعها ، تبعا للمقاييس التاريخية .**
- **٢٧ نصا مترجما الى الفرنسية .**
- خريطة عن الفتوح الاسلامية .

هدف المجموعة :

- وضع مجموعة من **النصوص الرئيسية** رهن اشارة الباحثين .
- وضع أداة عمل ضروري لطلبة التاريخ فى السلكين الثانى والثالث من التعليم العالى .
- تمكين المهتمين بالتاريخ من الاطلاع على هذه الفترة الاولى من تاريخ الاسلام عن طريق الوثائق العربية القديمة .

ثمن النسخة : ١٦،٥ درهما

طبع بمطابع المغرب الكبير - بالرباط

محمـد زنيبـر

مفهوم الاصالة في ثقافتنا القومية

- ٥ -

البحث عن الذات :

اذا نظرنا الى الفلسفة منذ نشأتها ، نجد أن موضوعها يتصـل اتصالا وثيقا بالاصالة . فهي بحث في ماهية **الكون** و **الوجود** و **الجوهر** والذات الخ . وهي محاولة لارجاع المتعدد الى الواحد . ولا ننس أن أهم مبدأ ينبني عليه المنطق منذ أرسطو والفلسفة العقلانية ، بوجه عام ، هو مبدأ **الهوية** . والمبدأ الثاني ، كما هو معلوم ، هو **السببية** أي ارجاع الحدث الى سببه المباشر ، ثم الى سلسلة الاسباب التـي تربطه بما يسمى **السبب الاول** . كل هذا يبين لنا أن الفلسفة تهدف الى أن تكون معرفة كاملة تتجاوز مستوى الظواهر والعالم الحسـي لتصل الى الاسس أو الاصول التي يقوم عليها الكل .

ولكن ، هنالك كائن حظي من بين الكائنات باهتمام خاص من لدن الفلاسفة ألا وهو **الانسان** . بحيث ان الفلسفة حينما تعاظم عليها

الكون بجلاله ولا نهائيته ، رجعت الى الانسان الذى هو مستودع المعرفة المحدودة فى هذا العالم والذى يتميز ، بالاضافة الى ذلك ، بوضع خاص بين الخلائق ، كما أشارت الى ذلك المذاهب الفلسفية ، وكذلك الاديان .

فكان أكبر مجهود قامت به الفلسفة منذ نشأتها الى اليوم هو البحث عن ماهية الانسان . ولا زال هذا البحث يتواصل باستمرار لان المعرفة بالانسان غير قارة ولا محدودة ولان المناقشة فى شأنها لاتنقطع كما لخص ذلك المعرى أحسن تلخيص في بيته الشهير :

والذى حارت البرية فيه   حيوان مستحدث من جماد

ولعل أول انطلاقة فى هذا السبيل هو دعوة سقراط الشهيرة : «اعرف نفسك بنفسك» . ونلتقى مع الفكرة ذاتها فى القرآن : «وفى أنفسكم أفلا تبصرون» . معنى هذا أن الانسان يستطيع أن يعيش دون أن يعرف نفسه . فهو ككل الاحياء يندمج فى العالم الخارجى الذى يحيط به ويهتم بما يرضى ضرورياته الحيوية وبما يحقق له مزيدا من الاستمتاع والسيطرة . ولكن هذه العودة الى الذات تمثل مرحلة جديدة ومهمة فى تاريخه . انها تعبير حاسم عن وثبة فى حياته العقلية . فمن قبل ، كان يعيش كغيره من الحيوانات يسير مع غرائزه وميوله دون الخضوع لاى مراقبة . أما الان ، فقد قبل أن يجعل من نفسه رقيبا على نفسه . ومن ثم نشأ ذلك الحوار الداخلى بين الانسان ونفسه الذى غذى الفلسفة منذ ميلادها الى اليوم .

«اعرف نفسك بنفسك» تؤدى الى معرفة **مزدوجة : معرفة بما هو كائن** أى بالواقع ، بهذا العالم الداخلى الذى لايقل رحابة وغنى عن العالم الخارجى ، و **معرفة بالقيمة** ، لان الانسان حينما يخوض فى الكشف عن واقعه ، يطلع على أحواله المختلفة ، فيعرف صحيحها من سقيمها ، ويعرف ما هو منحرف وما هو مستقيم وما هو نافع وما هو ضار ، مستندا فى ذلك الى تجربة الحياة المستمرة والى تحكيم عقله

فى كل نازلة • وهكذا تبرز أمام ناظره شيئا فشيئا مجموعة من القيم تصبح هى المحور الذى تدور عليه حياته ، كلما تصرف فيها بكامل حريته •

هذه المعرفة بالنفس أصبحت هى أجل العلوم وأشرفها ، برغم كون نتائجها لا تبرز للعيان مثل الاستكشافات العديدة الجارية فى علوم الرياضة والفيزياء والكيمياء ، مثلا • فالانسان يستطيع أن يغزو عالم الفضاء وعالم الذرة ، بكل سهولة ، ولكنه يقف حائرا مبهوتا أمام عالمه الخاص ، لانه أكثر تعقيدا وأقوى استعصاء • يدل على ذلك كثرة العلوم الانسانية وكثرة العاملين بها فى كل البلدان المتقدمة وكثرة النظريات والمذاهب المتضاربة فى الكليات والجزئيات • ويكفى أن نذكر هنا كمثال نظرية التحليل النفسى • فمنذ أكثر من نصف قرن اكتشف فرويد نظريته المشهورة عن التحليل الفسى ، وعرفت شهرة ذائعة فى العالم وتأسست من أجلها مدارس ، وبرز للوجود نوع جديد من الاطباء المختصين فى التحليل النفسى ، ولمع فى هذا الميدان أسماء أخرى مثل يونج و آدلر • ومع ذلك فلا زال هنالك عدد كبير من العلماء المرموقين ينازعون فى صحة هذه النظرية ويتشككون فى أساسها العلمى • والنقاش لم ينقطع لحد الساعة •

ومعنى هذا أن النفوذ الى سر الانسان ليس بالامر الميسور ولا بالامر الذى يمكن التوصل فيه الى نتائج قارة ونهائية فى دفعة واحدة، بحيث يمكن القول ان مشكلة «اعرف نفسك بنفسك» لا تزول مطروحة أمامنا كما كانت مطروحة فى عصر سقراط • والفلاسفة والمفكرون من كل صنف يعودون اليها باستمرار فى كل عصر محاولين أن يسلطوا عليها أضواء جديدة •

ومع ذلك ، فنحن اذا أعوزتنا المعرفة الشاملة فى هذا الباب ، نستطيع أن نقول اننا حصلنا على مكاسب فى بعض الجوانب التى تفرض علينا نفسها فى حياتنا اليومية • وهكذا ، فقد جردنا الموضوع عن هالته الميتافيزيقية ، لننظر اليه كموضوع يطرح علينا بصورة

تلقائية أو بصورة عملية ، سواء أثناء تفكيرنا في حياتنا الفردية أو في حياتنا الجماعية ·

من «الانا» الى «الوعي بالذات» :

وهذا الاتجاه فرضته علينا ، في الحقيقة ، الحضارة المعاصرة بما أبرزته من جوانب العبث والجنون في التطور البشري · فهذا القرن الذي كان قمينا بابراز نتائج التقدم العلمي والوعي الاخلاقي شاهد أفظع المجازر البشرية في التاريخ ، وفي أكثر المناطق حضارة ورقيا · وشاهد الانفجار الديموغرافي العالمي الذي أصبح معه الحيز الارضي بموارده المختلفة يتناقص باستمرار · وشاهد تضاؤل الفرد أمام استفحال سلطة الدولة وتعدد أجهزتها ، مما جعل موضوع الحرية يطرح من جديد بحدة لا مثيل لها في السابق · وشاهد تفاقم الصراع بين الطبقات ، ونشوء التعصب الايديولوجي الذي حل محل التعصب الديني ، واختفاء فكرة التعايش والتسامح · وشاهد نكوص الفكرة الثورية وانحرافها الى شتى الاشكال المزيفة ·

ولعلنا في مغربنا العزيز لانشعر بهذه المشاكل شعورا قويا ، نظرا لمفارقتنا التاريخية ازاء العالم المتحضر · ولكنها مشاكل قائمة في الاذهان بأروبا وأميريكا وسائر البلدان المتقدمة · بل انها بدأت تثير ردود فعلها بصورة مخيفة : انتشار الاستهلاك للمواد المخدرة ، نمو الحركة الهيبية التي تعبر عن احتجاج على الحضارة المعاصرة الخ· والشعور بهذه المشاكل جعل كل فرد يتساءل عن مصيره ويعود الى نفسه خائفا ملتجئا ، كأنه سيق الى مغامرة كانت مغرية في الاول ، ثم تبدد المنظر السحري وتكشفت الحقائق بمرارتها ·

والكلمة التي تلخص هذا الوضع الذي يعيش فيه كل من الفرد والجماعة هي **الاستلاب** · هنالك ، بالطبع ، موجة أو موضة التفاؤل التي تجعل كل واحد منا وهو غائص في المأساة الى الاذنين ، يقول ان العالم بخير · ولكن هذا لايمنعه ، كلما خلا بنفسه ، أن يشعر بثقل

العبودية المادية والمعنوية التي يخضع لها • فهو لكي يضمن لنفسه القوت اليومي ، مثلا ، مضطر لان يحتال بشتى الاحتيالات فيمسخ نفسه مسخا ليلعب الادوار التي يأباها باطنيا • واذا بحث لنفسه عن خلاص ، يجد أن المجتمع كله قائم على نسيج من العبوديات وأن مجال التحرر ضيق وصعب •

وفي وضعية الاستلاب هذه ، اكتسى مفهوم الهوية الشخصية أهمية قصوى • فالفرد المستلب ، والمجتمع المستلب ، ان لم يستطيعا التخلص من استلابهما ، يجدان ، على الاقل ، نوعا من الارتياح في معرفة هويتهما • فنحن ، مثلا ، كنا وقت الاستعمار نجد لذة خاصة في الاطلاع على تاريخنا والتعرف على كل ما يمثل جانبا بارزا وايجابيا في حياتنا الاجتماعية والثقافية • ولعل نظرتنا آنذاك كان فيها شيء كثير من الذاتية والعاطفية ، ومع ذلك فهي تمثل اتجاها لا زال قائما الى الان ، وان غيرنا منظوره • فنحن لا زلنا نبحث عن هويتنا الذاتية من خلال دراسة التاريخ ومظاهر حياتنا الاجتماعية المختلفة • ولكن حركتنا الان أكثر تجردا عن الذاتية وأكثر تشبثا بالواقع والحقيقة ، لان عددا كبيرا من المثقفين الواعين النزهاء في تفكيرهم ، استطاعوا أن يتخلصوا بعد الاستقلال ، من عدد الاوهام والافكار المسبقة والخرافات • ومهما يكن ، فالبحث عن الهوية ضرورة حيوية بالنسبة للوجود الانساني ، وبالنسبة لقيام الفكر ذاته كهيكل متكامل •

وهنا يجب أن لاننسى أن انطلاقة الفلسفة الحديثة انبنت على «الانا» الديكارتي • فالحجة الوحيدة على الكينونة في نظر ديكارت هي «الانا» الذي يفكر في الكون • وبهذه الصورة يصبح الانا هو مفتاح القفل الذي يسند على الكون بكليته • الا أن الانا الديكارتي مجرد عن كل المشخصات ، فهو الانا العالمي الذي يوجد في كل أنا شخصي • ومن ثم فما هو الا مرحلة في طريق استكشاف الحقيقة •

ولكن الفيلسوف الذي سيكشف عن أهمية الانا في مختلف مراحل الفكر هو ، بدون منازع ، **هيجل** • فالعقلانية الهيجلية التي

هى عقلانية مطلقة تنبنى على الجدلية التى ترى بزوغ الحقيقة فى التقاء الاضداد . وهذه الجدلية هى ، فى آن واحد ، صورة للواقع وصورة للفكر . فهى توجد داخل الاشياء كما توجد فى هيكل الفكر .

ويبين هيجل فى كتابه المشهور «فينومينولوجية الفكر» كيف أن الفكر يمر من مراحل جدلية مختلفة قبل أن يتقمص صورته المثلى . فالمرحلة الاولى هى الاحساس أو **اليقين الحسى** وفيها يشكل الفكر وحدة مع موضوعه ، فلا يتميز عنه . فهو مندمج فى العالم لاينفصل عنه . والمرحلة الثانية هى **الادراك** الذى يتم بواسطته تمييز الاشياء عن بعضها ولمس أوصافها ووضعها فى اطار الحيز والزمان . فهو يكسر **الكلى** ليبرز **الفردى** . وهنا يجد **نفسه** فى تنقل مستمر من موضوعه الى ذاته وبذلك يبدأ فى التعرف على كيانه . ثم تأتى بعد ذلك مرحلة **التعقل** التى يتم فيها الانتقال من الفرديات الى الكليات حيث يصبح عالم **الظواهر** لايدل على خليط من الاحداث والاشكال التى ليس لها أول ولا آخر ، كما يتراءى فى الاتصال الحسى المجرد ، بل يظهر خاضعا لمجموعة من **القوانين التى توحد ما كان متعددا ومتنوعا** .

وكان الفكر فى هذه المراحل الثلاث يتصل بنفسه باستمرار ، ولو كان موضوعه خارجا عنه . فكل عمليات الاحساس والادراك والتعقل تتم فى صعيد الفكر ، بحيث ان الفكر بدل أن يلمس الاشياء مباشرة كان يلمس نفسه ، الا أنه كان تائها فى الانتقال بين الموضوع والذات ، ويتراءى له أثناء ذلك أنه كان مندفعا خارج نفسه . والحقيقة أنه كان يعيش فى نوع من مغامرة داخلية يتوهم فيها أنه فقد وحدته ودخل فى حالة تمزق ، مع أن هذه المراحل الثلاث لم تكن الا خطوات ضرورية للوصول الى مرحلة رابعة ألا وهى **الوعى بالذات** . فالفكر بعد تيهه فى مغامراته المختلفة ينتهى فى خاتمة المطاف بالعودة الى نفسه ، لانه لايستطيع أن يستقر فى وجود غير وجوده الحقيقى . وهو حينما يتسلق الى مستوى الوعى بالذات يتفتح على الحياة وعلى العقل فى مفهومه الاكمل .

والوعي بالذات يصل بنا الى مفهوم الاصالة • فنحن نجد فـي جدلية هيجل التقاء بين **الانا** و **غير الانا** • والانا حينما يتوغل في هذا الاتصال يخضع لانواع من التحريف ويفقد الشعور بوحدته • لكنه قادر على تجاوز هذه المراحل ليعود الى نفسه أي الى **أصالته** • وهو في مرحلة الوعي بالذات يستعيد قوته باستعادة وحدته •

نعم ، الانا حينما نقول انه عاد الى أصالته ، لانقصد بذلك أنـه رجع عاريا فقيرا كما خرج أول مرة ، بل انه استفـاد من مغامرتـه واغتنى ، ومن ثم استطاع ، كما بين هيجل في فلسفته أن يضع علامته القوية في التقدم الذى حصل في التاريخ والحضارة والاخلاق والدين والفلسفة • الا أن أصالته تتمثل في عنصر أساسـي كان في الاول ولم يتغير في الاخير وهو **العقل المطلق** •

فالاصالة عند هيجل تمثل عودة الى الينبـوع الاول بعد تيـه ضروري ومفيد • الا أن تحليل هيجل يدور في سياق عقلاني بحت يهدف الى ابراز المفاهيم الكليـة المجـردة أكثـر مما يعنى بجانـب الخصوصيات والملموسات • فالفكر الذى يهمه هنا هو الفكر العالمي، في حين أن الاصالة التي تهمنا ترتكز أكثر فأكثر على الخصوصيـات والملموسات وترتبط بتجربتنا الحياتية المباشرة •

ومع ذلك فالحركة العامة لتفكير هيجل تبقى صحيحة بالنسبة لمعالجة موضوعنا • وهذا يتبين من مراجعة المشكلة كما تطرح علينا اليوم • فالاصالة هي الانا الاجتماعي بمعطياته التاريخية والحاليـة ، مجردة عن العوامل الطفيلية التي لاتدخل في الضرورات الحياتية • وهذا الانا الاجتماعي يصطدم بعوامل أخرى أقوى وأكبر منـه بحيـث يتضاءل في عينه أمامها وينغمر فيها ويتيه ويفتتن ويحار فيما يأخـذ وما يذر • وتدور به السفينة في اللجج والتيارات ، بعيدا عن كـل شاطىء • انه من دون شك ، يحمل الحنين الى نفسه ، ولكن مرحلة التيه لم تنته بعد • نعم ، انه يجتني ويغتني ، ولكن هذا لايمنعه من الشعور بنوع من التشتت والتمزق مقرون بالوعي بالذات • فهو اذن

يحمل نزوعا كامنا للعودة الى نفسه أى الى أصالته . وهذه الاخيرة تصبح ، اذن ، بالنسبة اليه كمثل أعلى لان فيها تتحقق وحدته وتتجمع قوته .

الاصالة والحرية :

وهذا التفكير يقودنا توا الى بعض المذاهب الفلسفية المعاصرة التي اهتمت خاصة بموضوع الاصالة وجعلت من الكلمة محورا أساسيا لتحليلاتها . ان فلسفة هيجل كانت تمثل ذلك الطموح الذى وجد مع الفلسفة منذ نشأتها ألا وهو الوصول الى الكائن ، الى المطلق بقوة العقل البشرى . فهى تعبر ، فى عمقها ، عن نوع من التفاؤل فى سبيل الوصول الى الحقيقة . ولعل محاولة هيجل هى آخر بناء فلسفى يحاول أن يكشف عن صورة شاملة وكاملة للكون والواقع . وميزة هذه الابنية أنها تنطلق من الكون أى من المشكل الانتولوجى ، وتضع فى مرحلة ثانية هذا الكائن الذى ندركه ونتعرف عليه باستمرار فى تجربتنا اليومية المباشرة ، وهو الانسان .

لكن الفلسفة المعاصرة آثرت أن تسير فى خط معكوس . فهى بدل أن تحلق فى سماء الكون ، باحثة عن الجوهر والذات ، فضلت أن تنطلق من الموجود القريب الذى يتصل به الفكر مباشرة . وهذا الموجود القريب هو الذى تجلى لديكارت عند اكتشافه الحاسم للانا **المفكر** . الا أن ديكارت لم يقف بالكفاية عند الانا المفكر ، وانما رأى فيه جانب العقل المجرد وتجاوزه لمعرفة الطبيعة وما وراء الطبيعة . أما الفلسفة المعاصرة ، فقد ركزت كل اهتمامها فى معرفة أوصاف وخواص ، هذا الانا الذى ندركه فى تجربتنا المباشرة . وقد كان فى نية الفيلسوف **هايدجير** ، مثلا ، عند الشروع فى أبحاثه أن يرتفع من معرفة الانسان الى معرفة الكون المطلق ، لكنه لم يستطع أن يخرج من نطاق معرفة الانسان أو الموجود ، بحيث ان فلسفته كلها تحليل وصفى للوجود أو ما اصطلح على تسميته **الوجودية** .

هذا الاتجاه الجديد الذى سارت فيه الفلسفة يرتكز ، اذن ، على التفات قوي للانسان ومشاكله التى برزت بأجلى صورة في هذا العصر · ومنذ أواخر القرن الماضى والفلاسفة يتحدثون ، كل على شاكلتـه ، عن أزمة الحضارة : ماركس ، نيتشه ، شبنجلر · وبرزت الازمة فى صيغ مختلفة · صراع بين الفرد والجماعة ، صـراع بين الحريـة والمساواة ، صراع بين الشعوب القويـة والضعيفـة ·· وحتـى المحاولات الثورية أو الاصلاحية التى جرت فى العالـم بينت أنهـا ، برغم النتائج الباهرة التى أحرزتها ، لم تستطع أن تحل المشاكل التى يعانى منها الانسان ، سواء فى نطاق الفرد أو الجماعة · فهى ، فـى الواقع ، لاتمثل الا علاجا مرحليا لبعض الادواء المزمنة فى المجتمع ·

ومن الخطأ ، ومن الغرور الاعتقاد بأن مجال التفكير والبحث توقف وأن ما أبرزته حضارتنا المعاصرة من نظريات كفيل بأن يحل كل هذه المشاكل · ولهذا ، فان المفكرين والفلاسفة ما زالوا قائمين على ساق وقدم يواصلون استكشافاتهـم · وقـد أتيحت الفرصـة للفيلسوف هايدجير ليحلل وضع الانسان المعاصر فانتهى الى نظريته عن **الوجود الاصيل والوجود غير الاصيل** ·

ويتبين من هذا التحليل أن الاتجاه الغالب على جمهرة النـاس هو الوجود غير الاصيل · فالانسان في انطلاقته نحو الوجود لايصطدم بأى شىء · فأمامه امكانات لامتناهية لتحقيق وجوده ، واذن ، فهـو يستمتع بحرية مطلقة ويستطيع أن يفعل بنفسه ما يشاء · يقـول سارتر : «ان الحرية ليست مزية مضافة لطبيعتـى أو خاصية مـن خواصها ، بل انها بكل ضبط هى نسيج وجودى» · ولكن الانسان يوجد دائما فى **وضعية ما** · فهو ابن عصر محدد ، وينتمى لمجتمـع معين ، وله مهنة ، وهو عازب أو متزوج الخ ·· وكلما اتسعت هـذه الوضعية وتعددت محدداتها ، تناقصت أمامه الامكانات الاولى التـى تعبر عن حريته واتجه الى **اختيارات** معلومة · ولكن هل هى اختيارات حقيقية ، أى صادرة عن ارادة حرة غير خاضعة لمؤثر خارجى ؟

الارتباطات الاجتماعية التى يخضع لها الفرد تجعل ارادته ، فى النهاية ، تتحكم فيها قوتان : قوة تمثل **ذاتا غير مضبوطة** ولا محددة في شخص بعينه ، وانما هى ذلك الفاعل المجهول الذى يعبر هوائيا عن كل واحد منا فى المجتمع ، وقوة تحاول أن تحافظ على حرية **الوجود** • فبقدر ما يخضع الانسان للقوة الاولى ، يكون قد اختار **اسلوبا غير أصيل** فى تحقيق وجوده ، لانه يتخلى عن ارادته الحقيقية ليخضع باستمرار للغير • فهو في كل حركاته وسكناته ، فى نوع حياته ، فى تفكيره ، في كلامه ، مثلا ، يجد نفسه مرتبطا بهذا الغير ، يترقبه ويسير على خطاه • وهذا الغير ، كما قلنا ، ليس شخصا معينا أو أشخاصا بذاتهم ، وانما هو فاعل غير مشخص ويمثل المحيط البشرى الذى يعيش فى وسطه ويبتلع ذاته الفردية بالكلية، ويجرده من كل السمات التى تعبر عن شخصيته الحقيقية ، بحيث يصبح الشخص خاضعا لمقياس وسط يستجيب لمقتضيات **التوطئة** البشرية العامة ، لايحظى بأى سر ولا يقبل منه أى جديد •

ولعل أقوى صورة لهذا الاسلوب غير الاصيل هو اكتساح الحياة اليومية للوجود الفردى • يقول المفكر اينياس ليب فى كتابه : «الوجود الاصيل» :

«من دون شك أن هنالك عددا كبيرا من الناس لايطرح عليهم وجودهم أية مشكلة • فهم كما هم • ويكادون لايعون بانتمائهم لبيئة تاريخية أو ثقافية معينة ، وبانغمارهم فى وضعية ما • فهم يكتفون بفعل ما يفعل الناس حواليهم : يشتغلون ويأكلون ويشربون ويتزوجون وينجبون أولادا شبيهين بهم • انهم تماما ككل الناس ويريدون أن يكونوا هكذا • انهم غائصون فى الحياة اليومية وهذه الحياة اليومية تكفيهم • ولا تطلع ولا طموح لهم يكدر عليهم نومهم • والناس من هذا النوع لايوجدون فقط بالقبائل البدائية بافريقيا ، أو فى طبقات مجتمعنا الاقل تطورا • انهم فى كل مكان ، وفى كل الاوساط وفي كل الطبقات» •

وقد يتراءى للقارىء أن مثل هؤلاء الناس الذين يقنعون بوجود غير أصيل على هذه الصورة تعساء ، قلقون . انهم ، بالعكس ، يحظون بكامل الارتياح والاطمئنان وهم يذوبون فى محيطهم البشرى واليومى ، بل ويشعرون بنوع من الاعتزاز . ومصداق ذلك ما نراه فى تحكم التقاليد والعادات الى درجة تتجاوز العبث . فليس هنالك من عريس ولا أب عريس عندنا يتصور حفلة الزفاف بدون جوق «الآلة» وبدون طبول ومزامير . ومن تخلى عن ذلك يشعر بنوع من الخجل ويضطر لتفسير موقفه للمجتمع كأنه أتى بجرم ! وصورة الوجيه المهذب عندنا هى صورة ذلك الشخص الذى يحافظ على كل تلك الطقوس والتقاليد فى هيئته ولباسه وأسلوب كلامه وعلاقاته الاجتماعية . انه سعيد بأن يكون صورة حية وكاملة لما تعارف عليها الناس فى بلده ، ولكنه يجهل أن ذوبانه فى محيطه البشرى وما جلب له من ارتياح واعتزاز كان على حساب تحقيق شخصيته الحقيقية ووجوده الفعلى .

أما اذا استطاع الانسان أن يقاوم هذه القوة الخارجية ويتحرر من كل أنواع الاستلاب التى تغله فى المجتمع الحالى ، فانه آنذاك يفتح لنفسه الطريق نحو **الوجود الاصيل** . وبديهى أنه طريق صعب وشاق لانه يفترض ثورة شاملة وصراعا مستديما مع المجتمع وما يمثله من مثل وقيم وعادات . والانسان الذى يستطيع أن يسلك هذا السبيل هو الذى سماه نيتشة **السوبرمان** أى **الانسان المتفوق** . ولهذا فان نيتشة يعلن عن فلسفته كانقلاب فى القيم . وهى فكرة تابعه عليها الفلاسفة الوجوديون المعاصرون .

وانطلاقا من هذه الارضية يستطيع الانسان أن يتصرف فى حريته ويعتبر نفسه هو المسؤول الوحيد عن مصيره . نعم ، ان بعض الفلاسفة الوجوديين مثل هايدجير وسارتر يرون فى هذه الحرية الشاملة مظهرا لمأساة الانسان وعبثية الوجود . ولكن نيتشة

والفلاسفة الماركسيين ، مثلا ، يرون أن المجال مفتوح أمام **ارادة القوة** الكامنة فى الانسان •

ومهما يكن ، فالذى يجب أن نحتفظ به من كل هاته التحليلات هو أن **الاصالة** ما هى الا تعبير آخر عن **الحرية** ، بحيث ان هنالـك تطابقا بين المفهومين ، وان تغير منظورهما • فالاصالة تشير الـى الكائن وقت بروزه للوجود قبل أن يختلط بالغير وتشوبه الشوائب ، أى وقت صفاء جوهره • فهو آنذاك يكون متفقا مع ذاته ولا يعبر الا عن ارادته الخالصة • وهذا ما يتراءى ، بكل وضوح ، فى الصـورة التى رجعنا اليها ، من حين لآخر ، وهى صورة **الجـواد الاصيـل** ، حسب التعبير العربى القح • فالجواد الاصيل تظهر أصالته فى أجلى معانيها حينما يتحرك وسط البرية عدوا ووثبا وركضا • وهو ، فى تلك الحالة ، لايكون الا تعبيرا عن ذاته • انه يعبر عن حريته بطريقته الخاصة ، طريقة الحيوان التى تلتقى فيها الغريزة مع التعلق بالحياة ومع الحرية •

فلو وضعنا هذا الجواد تحت سياط الاستغـلال ، فسخرنـاه لاغراضنا وعلمناه العبودية وعودناه على عادات أخرى ، نجد آنذاك فى حركاته ثقلا واعوجاجا وعياء • انه لايعبر عن نفسه بمحض غريزته ، بل يدفع الى الحركة دفعا لغاية يجهلها ويستعمل كوسيلة • فهـو ، بكل ضبط ، يعانى حالة من الاستلاب ، وبذلك يجرد عن أصالته أى عن حريته •

وهكذا ، فالتحليل الفلسفى يؤدى بنا الى هذا الاكتشاف وهـو أن الاصالة ليست مجرد عود الى الجـذور الزمانيـة أى التاريخيـة للانسان ، بل هو عود الى جوهر الانسان فى كل زمان ومكان ، وهو الحرية • فالذين يرون فى الاصالـة تشبثـا بالماضى والتراث انمـا يكتفون بنظرية سطحية بعيدة عن الحقيقة • فالذى يبحث عن الاصالة لايحتضن كل الماضى ولا كل التراث احتضانا عشوائيا ، وانما يبحث فى ذلك الماضى وفى ذلك التراث عما يمثل لحظات تحرر صادقـة •

فما سر اعجابنا اليوم برجال أمثال المعرى والمتنبى وابن خلـدون ؟ ألكونهم يمثلون الماضى ، فقط ؟

الواقع أن الذى يجتذبنا اليهم هو أننا نلمس ، من خلال آثارهم، بصورة أو بأخرى ، نزوعا الى الحرية والى تجاوز المستوى اليومـى للحياة • فالمتنبى ، وان كان مداحا ومتملقا فى بعض الاحيان ، تجـد شعره كله تعبيرا عن ثورة انسانية صادقة • والمعرى يمثل الرجـل الذى لاينخدع للاوهام والخرافات وينتقد بصراحـة فائقة ما يـراه فاسدا فى مجتمعه • وابن خلدون يتجاوز فى نظرته التاريخية الوجه القصصى ليرى ما وراءه من عوامل دائمة تدفع الانسان دوما الى صنع التاريخ • فالاصالة التى نعجب بها عند هؤلاء المؤلفين ليسـت هـى الماضى ، بل انها نفى للماضى • فهى ، بالضبط ، ما يتجاوب مع هذا الطموح النبيل الذى نحمل فى نفوسنا ، عندما تتم فينا معانى الشرف الانسانى ، ألا وهو النزوع الى الحرية •

وبهذا المعنى ، فان مفهوم الاصالة لايعبر عن مزية من المزايـا المستحبة فى الاشياء ، يمكن حضورها كما يمكن غيابها • بل انهـا تمثل قيمة أساسية بالنسبة لسائر مظاهر الحياة الجماعية ، وبخاصة المظهر الثقافى • فنحن اذا نقلنا هذه التحليلات الفلسفية التى كانـت تعنى الانسان كفرد الى مستوى الحياة الاجتماعيـة ، نجد صحتهـا تتأكد ، ومطابقتها للواقع تزداد وضوحا •

الفراغ الفكرى وأخطاره :

ان عوامل الاستلاب والانحراف تتسرب بكل سهولـة داخـل المجتمعات التى تعيش فى طور الازمة • هنالك مجتمعات تؤمن بنفسها لانها تؤكد وجودها فى الحياة عن طريق الانتاج والابتكار والابداع • فهى لاتكتفى بالاعتماد على ما عند الغير ، بل تحاول أن تعتمد علـى نفسها ، قبل كل شىء ، وأن تتبارى مع الغير فى كل ميادين الانتاج • وهنالك مجتمعات تنطلق من موقف انهزامى ، فتفقد الثقة بنفسهـا

وتعتقد أنها لاتستطيع أن تنهض من كبوتها الا بمعجزة أو بالبحث عن علاجات جاهزة تغني عن كل مجهود فكري ، مع أن كل مجتمع له معطياته الخاصة به ·

ومجتمعنا المغربي الحالي من هذا الصنف الثاني · فهو يجتاز من أزمة عميقة تمس بكل شيء ، بالحياة السياسية والاقتصادية ، التي لها تموجاتها وتكيفاتها اليومية المنعكسة في صراعات وأحداث مختلفة · ولكن أخطر مشكل يعانيه مجتمعنا الحالي يمس ، قبل كل شيء ، بالحياة الفكرية · أقول هذا وأنا أرى الاحتجاج الصارخ ينبعث من بعض الذين يعتقدون أن المادة هي أساس كل شيء ، وأن الفكر تابع للمادة ، يقوى بقوتها ويضعف بضعفها ·

وأظن أن التفكير العالمي تجاوز اليوم هذه المقابلة العقيمة بين الفكر والمادة التي تذكر بالمناقشات البيزنطية حول جنس الملائكة · والذي نراه أن المادة موجودة والانسان موجود ، من جهته · ولولا فكره الذي يتميز به عن باقي الحيوانات ما كان ليستطيع أن يحول المادة لصالحه · فالمادة ، كما يقول العلماء الجيولوجيون ، كانت موجودة قبل أن يوجد الانسان · فلما برز هذا الاخير للوجود سلط عليها فكره واستخرج منها أدوات ووسائل · ولذلك ، فلا ينبغي لنا أن نستهين بالحياة الفكرية ونعتبرها مجرد ذيل للحياة الاقتصادية·

الحياة الفكرية لها دورها الفعال والحاسم في كل مجتمع · وأكثر المجتمعات تطورا وازدهارا هي التي استطاع الفكر أن يكون فيها أقوى نشاطا · أقول هذا احتجاجا على اعتقاد بدأ ينتشر لدى عدد من المثقفين وهو أن تفكيرنا لن يستقيم ويزدهر الا يوم نقطع أشواطا في الميدان الاقتصادي وأننا ، الى ذلك الحين ، محكوم علينا بالانتظار والركون في مواقعنا الحالية · وهذا موقف انهزامي من جهتين : فهو ، **أولا** ، يتضمن حكما اطلاقيا ومسبقا على كل امكانياتنا الحالية ، وكأنه يستند على يقين مبني على أساس لايقبل الجدال ، والحالة أن التفكير الاقتصادي حينما يتحول الى مذهبية وثوقية

وشمولية ، يصبح قابلا للطعن من عدة وجوه سيما وأنه ، فى مثل هذه الحال ، يدعونا الى استسلام لحتمية مفتعلة ، ويسد فى وجوهنا أبواب الانطلاق ، ويثبط العزائم المتحفزة ويتحكم حكما اعتباطيا فى النوايا الحسنة ، ويحمل فى ثناياه تقييما مسبقا لكل الاعمال والآثار الفكرية قبل بروزها للوجود ٠

وهو ، **ثانيا** ، حينما يكبت الطموح الفكرى الناشىء وينيخ على العقول بنظرته المتشائمة يحملنا على اهمال ما عندنا والتطلع الى ما عند الغير ، دون أن يكون فى دعوته أى حرص على نوع من التوازن أو اهتمام بالربط والتلقيح ٠ انها فى الحقيقة دعوة للهروب ، للفرار ، ولكن الى ين ؟ ولو فكرنا فى الامر ، بعمق وجد ، لوجدناه فرارا من الوجود الى العدم ، من الحقيقة الى الوهم ، من الغنى الى الفقر !

والحقيقة أن اقتصادنا هو ، أيضا ، فى حاجة الى الفكر ٠ ولست أقصد هنا الفكر التقنى فقط ، بل أعنى ، بصورة خاصة ، الفكر بمعناه الواسع الذى يستطيع أن يشرف على الواقع من أعلى ليستكشف كل جوانبه ويستكنه كل حاجات الحاضر والمستقبل ولا يظل تطبيقا لمعادلات روتينية ٠ الفكر هو الذى يستطيع أن يخطط برنامج الحياة لمجتمع اليوم والغد ، اعتبارا لكل المعطيات الانسانية والمادية ، وانما على الاقتصاد أن يمتثل ويتكيف مع ذلك البرنامج ويحاول تحقيقه بالصورة المثلى ٠

اننا نتكلم كثيرا عن التخلف الاقتصادى ، وهذا طبيعى ومعقول ، ولكن ليس من الطبيعى ولا من المعقول أن نهمل التخلف الفكرى ، وخطورة هذا التخلف تظهر بكل وضوح اذا خرجنا من عالم المثقفين الضيق الصغير لننظر الى مجتمعنا ككل وتساءلنا كيف يفكر الفلاح والعديد من الاميين الذين يملاون المدن ٠ هل تحرر فكرهم من العقلية الخرافية والشعوذة ؟ هل يدركون المفاهيم الاساسية التى تنبنى عليها الديموقراطية والتقدم ؟ انى لا أنكر أن هنالك وعيا ٠ ولكن يجب أن نفرق بين الوعى والمعرفة ٠ فالوعى ما هو الا تفتح

نحو المعرفة • واذا لم يزود هذا الوعي باستمرار ويملأ بعناصر حية وجديدة ، فانه يظل وعيا غائما • ولا سبيل الى ذلك الا بتنمية الحياة الفكرية في المجتمع وتعويد العدد الاكبر من الافراد على التفكير بحرية، دون محاولة التأثير عليهم أو فرض نظرية مسبقة عليهم •

ومن الطبيعي ، ونحن نجتاز من هذه الازمة الفكرية ، أن نحاول معرفة الحلول التي أخذ بها الغير وأن نتفهم كل النظريات والمذاهب • ولكن هذه المحاولة يجب أن تظل دائما واعية بهدفها الاصلي فلا تنحرف عنه أثناء الطريق • وأخطر هذه الانحرافات هو **الاستسلام** أو **التحمس المرتجل** أو **التنكر الكلي للذات** •

أما الاستسلام ، فهو يعني تخلي الفكر عن مهمته ورهنه لحريته • وهذا شبيه بما لو بحثنا عن أستاذ أو مساعد فني يفكر في محلنا لاننا عاجزون عن القيام بهذه المهمة • وقد يتقمص هذا الاستسلام أشكالا كثيرة منها الايديولوجية ومنها العلمية ومنها الفنية ومنها الحضارية • وقد كان عملنا في البداية يهدف الى دراسة دقيقة تدخل في اطار تفكير شامل يضم معطيات أخرى ترجع الى الذات • وبديهي أن الدول الكبرى ذات المصالح العالمية لها دورها الفعال في اثارة هذا الاستسلام • فهي التي تخلق المقياس النموذجي للشعوب النامية لتدفع بها الى وجود غير أصيل ، لان تشبث هذه الشعوب بأصالتها يعني ارتباطها بينبوع حريتها وتأكيدا لشخصيتها وكيانها •

وأما التحمس المرتجل ، فينشأ عن تفكير سطحي أو عن اندفاع خال من كل تفكير • انه قريب من موقف أولئك الذين يعتمدون على الخوارق والمعجزات في معالجة مشاكلهم • وهذا موضوع نعرفه جيدا لاننا اجتزنا ولا زلنا نجتاز من موجات من الحماس المرتجل فعرفنا التحمس لاشخاص وأفكار ومواقف • وفي كل مرة نصادف أنواعا من الخيبة متبوعة بالاستيقاظ العنيف : «لقد كنا نظن أن ، فاذا بـ ••» ثم ننساق في طريق مناقضة من باب التشفي أو التعويض كما يقول أصحاب التحليل النفسي • وكان يكفي أن نأخذ الامر بجد في الاول

ونتجاوز النظرة السطحية أي ، بعبارة أوضح ، أن نتعلم استعمال ملكتنا الفكرية الى أبعد مداها ، وبكل ما تحمل من استعدادات للتمييز والنقد • وفي مقابل هذا التحمس العاطفي الرخيص ، نجد المنهاج العلمي والتجربة والخبرة وكل ما يعتز به انسان اليوم من مكاسب بعد مسيرته التاريخية الطويلة •

وأما التنكر للذات ، فقد يتخذ في نظر البعض صبغة ثورية ، ولكنه يمثل ، في الواقع ، رد فعل عاطفي خال من كل تمييز • فهو أشبه ما يكون بالغضب الاعمى الذي يتلف الاخضر مع اليابس دون أن تكون له أهداف واضحة ومدروسة • ولذلك ، فهو على طرفي نقيض مع النقد الذاتي الحقيقي • فكلمة نقد تعني في لغتنا تمييز الصحيح من السقيم ، بحيث ان النقد الذاتي عملية تهدف الى المحافظة على الذات وتقويتها لا الى فسخها والقضاء عليها • فهي ترمي ، قبل كل شيء ، الى تمييز الجوانب السلبية في الكيان الذاتي لمحاولة اصلاحها أو تجاوزها • بخلاف التنكر للذات الذي يمثل موقفا اعتباطيا لا عقليا • وقد يقترن مع حالة نفسية مرضية تذكر بتلك الرغبة التي توجد عند بعض الاشخاص في تعذيب نفوسهم أو ما يسميه علماء النفس «المازوخية» •

ولذلك ، فان الطريق نحو اكتشاف الاصالة هي الطريق نحو التفكير **الحر** ، أي التفكير الذي يؤمن به الانسان عن اقتناع حقيقي لانه توصل اليه بمجهوده الخاص • والتفكير الذي يحظى بهذه الميزة ليس هو الذي نتبناه لانه صدر عن فلان أو فلان من الاعلام اللامعة في التاريخ أو لاننا اقتبسناه من هذه النظرية أو تلك ، ولكن هو الذي نصل اليه ونحن نسلك طريقنا خطوة خطوة ، سواء التقينا في نهايته مع الغير أم لم نلتق • وليس هذا ناتجا عن أنانية أو رغبة في المخالفة أو تعلق بالاغراب وانما هو متولد عن حقيقة أولية وجوهرية الا وهي أن كل مجتمع ، على الرغم من روابطه مع المجتمعات الاخرى ، لابد وأن يسلك من طريقه الخاصة التي هي نسيج وحدها،

وهي طريق تحددها له معطياته التاريخيـة والجغرافيـة والبشريـة والاقتصادية • وهذا ، بالطبع ، لايتنافى مطلقا مع فكرة المسـاواة والاخاء بين الشعوب • فكما أن الاخوة فى الاسرة الواحدة يختلفون وجها وخلقا دون أن تنفصم بينهم عرى الاخاء ، فكذلـك الشعـوب فيما بينها •

منشــورات « أقــلام »

سلسلة الطب فى متناول الجميع : ٥

الأمراض المعدية للامعاء

تأليــف

الدكتور عبد الكريم العمرى

عبد القادر الشاوى

النــار والجوع والنهــاية !

دراسة فى شعر محمد ابن دفعة

الان ، اعلن حبى ، القيه بين الكلمات الجوهرية ، القوى الجوهرية حبى قارة ، لم يسمع بها ، تنبثق بانهارها واشجارها وجبالها انبثاق البركان •

يا امراة الآفاق والقرابين

اراك فى فيضان الثورة ، تقتربين من الهدف ،

خذى يد رفيقك ، لم يبق غير منتصف الطريق ،

وها انا المحك والمحه فى موكب جامح يفتتح السماء

عبد اللطيـف

- ١ -

الديوان الاول لمحمد بن دفعة (١) الذى صدر فى ١٩٦٧ ، فى حدود رؤياه لواقع معين ، يعرض مشكلة مغلوطة قائمة : الذات فى مواجهة الواقع الموضوعى • الذات تشكل العالم المنفصل المعــزول ، والواقع يشكل العالم المنفصل المعزول ، بمعنى أن كل ما هو ذاتى ، يعلن قطيعته فى الحال ، بشكل قرار ظنى ، لكل ما هو واقعى • الحب

---

١ ـ اشواك بلا ورود ـ الطبعة الاولى ١٩٣٧ ـ المطبعة الوطنية ـ فاس •

ذلك العالم المجهول «يعمى ويصم» الذى مرغ فيه الشعـراء أحلامهـم بصبيانية نادرة ، والحرمان ذلك الهاجس الحاضر ـ الغائب ، المحاصر دوما ، المباغث دوما ، يواجه الشاعر فينتصر عليه لانه يقترن بالحب «الا ترى أنه يعمى ويصم» والحب يقترن بالذات ، والذات قوتها نادرا ما تكون ذا قرار حاسم فى شأن العاطفى الآسر .

الواقع المفصول «الآخر» يلوح بعيدا مهملا ، شبحا يتراءى فـى مخيلة الشاعر ، مجهولا ، منطقة محرمة . الشاعر منه ، ولكن رفضه له مغزاه : انه يتجاوزه ضمانة لتحقيق الاهتمامات الخاصـة الغيـر المتحققة فيه ، والشواغل الخاصة الغير المتحققة فيه .

هذه المشكلة ، بهذه الصورة ، تعكس تماما واقع الشعر المغربى الحديث منذ مطلع الستينات ، أى ذلك الشعر الذى احتضنه الاستقلال بعد ١٩٥٦ ، وكان معظم الشعراء أبناء شرعيين لطبقة بورجوازيـة صغرى (ملاكين صغار ، موظفين رسميين ..) نمت فى ظل الصـراع الطبقى كممثل لليسار الوطنى (١٩٥٩) بظهـور (الاتحاد الوطنـى للقوات الشعبية) واندحار الجناح التقليـدى فى الحركة الوطنيـة (فكريا(. ولم يكن الشعر ، فى الشكل المستحدث)أى الشعر الحر) غير المتنفس الذى حمل هموم الجيل الماضـى بكل ثقلها وظلالهـا ، وعكسها على واقع كانت **الحقائق** فيه كالآتى :

١ ـ وجود حكم فى قمة السلطة السياسية فى البلاد .

٢ ـ ظهور ، تيار اليسار الوطنى ، الذى مثل تركيبه تصورا متقدما للواقع المغربى (ايديولوجيا وسياسيا) .

٣ ـ تفسخ الحركة الوطنيـة السلفيـة ، وانهيـار جناحهـا التقليدى (ليس بشكل مطلق) .

٤ ـ نسبة الامية تصل الى ٩٦٪ ، البطالة ، الفقر ، الجوع .

٥ ـ الحماس الجماهيرى .

ان مضمون الصراع الذى حملته البورجوازية الصغرى ، كان كافيا ذاتيا ، لبلورة اتجاه شعرى يستفيد من ظروف الوضع الخاص ومن واقع الشعوب المضطهدة لاستكمال بناء الثقافة الوطنية • غير أن المضمون **الحقيقى** الذى برز حادا وشائنا ، **لم يكن غير التعويض المجانى للطموح الطبقى الذى سيحمل البورجوازية الصغرى فيما بعد، الى مراكز النفوذ الاجتماعى والاقتصادى وان لم يكن على مستوى السلطة الفعلية** ، ذلك الطموح الذى عكس نفسه فى صور متنوعة ، ولكنها لاتخرج عن ايقاع النوطة : **استبداح الذات كبديل للواقع الموضوعى** •

ولعل فترة الستينات ، على مستوى الشعر ، عدا ما مثله محمد الحبيب الفرقانى (٢) كرائد للشعر الاجتماعى بأفق ثورى ديمقراطى، اعطت على نحو من الانحاء ، الفرصة المواتية لنماء هذا الاتجاه الخاطىء (اتجاه تجسيد الذات كبديل للصراع) من ضمن الواقع الاجتماعى •

الحقائق الموضوعية الملموسة السالفة ، كانت كافية ، لا فى ابراز اتجاه شعرى متجذر ، من وسط الجماهير ، يعبر عن طموحها ويجسد واقعها ، بل لطرح بديل آخر سيسقط من مضامين الشعر الثورى ، المعاناة ، والتجربة ، والانحياز ، ويختار البديل الرومانسى كتعويض عن رؤية ما هو موجود ، الى ما يجب أن يوجد ، أى ما هو كائن ، الى ما يجب أن يكون ، أى تعويض الواقعى بالذاتى •

حقيقة ، ان من يعيد النظر اليوم ، فى التجربة الشعرية الحديثة سيعثر بكل تأكيد على جملة من المصطلحات ، تنتسب بتفاوت ملحوظ، الى الواقع الاجتماعى وتعبر عنه ، ولكن بالقدر الذى يعطى احساسا

---

٢ ــ «نجوم فريدى» وبخاصة فى مقدمة الديوان ، التى سجلت لاول مرة فهما متقدما جدا للشعر ، وطرحت المضمون التقدمى بكل ابعاده ، وفى مستويات متعددة : دوره اهدافه ، لمن ؟ ولماذا ؟ وعلى اى اساس ؟ ولصالح من ؟ انها بحق «مانيفستو» الاتجاه التقدمى فى الشعر المغربى الحديث •

مباشرا بسطحيتها وفوقيتها • وأصبح الشعر **نشاطا** موزايا للنضال الجماهيرى فقط ، فى مستويات ثلاثة : الاجتماع ، الاقتصاد والسياسة ، بدل أن يكون **طليعته** ، أى مجسد النضال وحامل القضية والمعبر عن موقف ملموس ومحدد •

ان المسألة تحديدا ترتبط فوق ذلك ، **بنوعية الفكر السائد : رسميا الفكر المعبر عن حال الاقطاع والكومبرادور والبورجوازية المرتبطة بالاستعمار الجديد ، وحزبيا ، الفكر المعبر عن واقع البورجوازية والبورجوازية الصغرى** • وكان الشعر كتعبير بورجوازى صغير يتلذذ بالنضال الجماهيرى ، ويعجز عن تلمسه ورسم مساره•

وكانت فئات المثقفين من البورجوازيين الصغار ، الذين نطقوا شعرا فى بداية الامر للتعبير عن الصراع الطبقى ، خير من يجسد حال وجودهم بين موقفين متراوحين : الطموح والردة • الطموح الى التعبير عن الواقع الجماهيرى اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ، والردة الى بحث مواقع (الذات) من الواقع ذاته ، مستلبة ، وهامشية ، للتعبير عن نكوص مبرر بفلسفة ليبرالية • وفى هذا المستوى بالذات ، يبرز ما أسميته فى البداية بالمشكل المغلوط : تناقض الذات مع الواقع الموضوعى • وساد هذا المفهوم حتما بسيادة المفهوم البورجوازى الصغير لمسألة التطور الاجتماعى والاقتصادى • فى مضامين تتراوح بين الثورة بأفق رومانسى ، والتقرير والوصف ، فى مجمل نتاج المرحلة كاملة : (صامدون) للهوارى ، ديوان مصطفى المعداوى، (حب) للسولامى (أشعار للناس الطيبين) أشعار أحمد المجاطى ، (الحب مهزلة القرون) (أهدانى خوخة ومات) ، أشواك بلا ورود ، مالكة العاصمى ، الطبال ، بنميمون •••

وما عبرت عنه هذه المرحلة شعريا يمكن تحديده فيما يلى :

أولا : النظر الى الواقع الاجتماعى من زاوية البحث عن «التجربة» التى تغنى المضمون الجمالى لرؤية الشاعر، على أساس تصورافتراض مقلوب : التجربة قائمة خارج الذات • كلف هذا ما كلف الشاعر

المغربى من استنزاف طموحه المعنوى للارتباط بقضية الجماهير ، فى وقت كان النضال الجماهيرى هادرا (٥٨ ـ ١٩٦٥) وكانت حصيلة هذا الافتراض المقلوب ، أن بقيت التجربة الملموسة والمعاناة الصميمة، خارج تصور الشاعر ، ومحور بحثه وضالة طموحه ٠

ثانيا : النظر الى الجماهير الكادحة من زاوية عاطفية ، أى من زاوية استشعار الرغبات الذاتية تجاه نضالهـا اليومـى ، واسقاط الاوهام الشخصية على حركة سيرها ٠ هل كانت الرغبات هى التى توجه حس الجماهير العفوى الى عدوها الطبقى ؟ هل كانت الرغبات عند الشاعر هى المعادل الموضوعى للنضال السياسـى ؟ هـل كانت الرغبات عند الشاعر هى الطموح المستحيل الى اثبات فعل ملموس ؟ انما كانت الرغبات تعكس أزمة الشاعر المتراوحة بيـن المسانـدة والانخراط ، بين المساهمة الفعلية ، والاحساس بالمساهمة ، بيـن الانحياز الملتزم والتنظير الفوقى ٠٠ هكذا رحلة طويلة ، لا تنتهى الا بمصادرة الاحلام البورجوازية الصغرى ، وحسم التذبذب لصالح ماهو أساسى ومتجذر ، ويعلن الوفرة والقوة والمستقبل ٠

ثالثا : السكوت عن الصراع الطبقى ٠ لان مهمة اتلافه وتعميته، كانت وستبقى ، مشروعا فى برنامج القوى المضـادة لسير حركـة الجماهير تاريخيا (الاقطاع والكومبرادور ، والبورجوازية الاصلاحية المرتبطة بالامبريالية والاستعمار الجديد) ٠ وكان السكوت عنمجريات الصراع الطبقى ، يعنى أحد أمرين : الاعتراف الضمنى بشرعية هـذا السكوت تحت رحمة الفراغ الايديولوجى والخواء السياسـى ، أو الاعتراف الضمنى أيضا بقوة البطش المسلط ، ضريبة الفكر الثورى فى وضع يحكمه الصراع بين القديـم والجديـد ، وبين المستغـل والمستغل ٠ وأظن أن المستوى الاول ، أقرب الى فهم مدلول السكوت عن واقع الصراع الطبقى ، لانه يعنى أول ما يعنـى ، أن انصـراف الشعر بحثا عن الذات المستلبة ، يقطع حتما ، باهمال الواقع الموضوعى والذى كان الصراع تعبيرا عن قوته وحدته وضراوته ٠

رابعا : النظر الى الشعر (وسيلة التعبير الفنية) كهدف ، يعفي الشاعر من تحديد هويته الطبقية · منتميا أولا ، وكيف ؟ ولماذا ؟ وعلى أي أساس ؟ مناضلا أو لا ، كيف ؟ ولماذا ؟ وعلى أى أساس ؟·· أى اتخاذ **الشعر** كوسيلة لتغطية الموقف الفكرى ، بمبررات الحداثة ، والمعاصرة ، والاسطورة ، والرمز ، وصولا الى تجريد الشعر ، اذا كان أداة نضالية ، وموقفا ثوريا ، من العوامل السياسية والاجتماعية المشكلة له ، وصولا الى منطقة الحزن والتهويم وصولا الى مستوى الاغراق فى التساؤلات اللامنطقية عن معنى الحياة والوجود ، والانسان والتاريخ ، والحضارة ·· ويقضى هذا الموقف المسبق من معنى الشعر ودوره ، بوجوب التزام الشاعر منطقة الحياد بين طرفى الصراع ـ النقيض ، على اعتبار أن الشعر ليس الا تفريجا عن خواطر معينة ، تخص الشاعر دون غيره بحسب رؤيته ومفهومه وتكوينه · ولقد تضخمت هذه الرؤيا أساسا لدى مجموعة من شعراء (جيل الوسط) (٣) (الطبال ، المجاطي ، بنميمون ، السرغيني ··) نتيجة طبيعية لعزلتهم، واعتزازهم المتفرد بالقدرة على الابداع الشكلي ، ونتيجة ثانية لقرب صلتهم بمستوى التجربة الشعرية فى المشرق العربى (السياب ، نازك ، عبد الصبور ، على الجندى ، ادونيس ، البياتى ، حلوى ··) **تلك التجربة التى كانت فى حدود الستينات تدخل منعطفا جديدا ، هو أقرب الى التجريب البورجوازى الصغير منه الى الواقعية الاشتراكية ·**

غير أن المرحلة فى حد ذاتها ، لم تبخس حق الشعر والشعراء فى اثبات مشروع الوجود ، الى جانب قوى التغيير (الجماهير صاحبة المصلحة في التغيير الجذرى) · ومن هنا تكون المرحلة قد أثمرت

---

٣ ـ هذا التصنيف ليس علميا بشكل مطلق ، ولكنه يصلح ابتداء من سنة ١٩٦٠ فى التدليل على مجموعة من الشعراء ، بحكم معاصرتهم لظهور الشعر الحر فى الشرق، وتأثرهم بها ، ليشكلوا فعلا ، الحد الفاصل بين جيلين على مستوى التجربة الشعرية فى القرن العشرين ·

واقعا آخر متخلفا الى حد ما ، واقع ظهور حركة شعرية ، تسعى الى الارتباط بالنضال اليومي للجماهير سياسيا ، من موقع المعاناة الطبقية ، متخلفا كما قلت بالقياس الى النضال الجماهيري الذي وصل الى حدود رفض المؤسسات الاقطاعية والبورجوازية القائمة ، في ظل شروط القمع والاضطهاد • ان هذا الممكن ، ممكن اثبات الوجود سيثمر فيما بعد ١٩٦٧ مباشرة ، بفضل ارهاصات (جيل الوسط) ظروفا أعطت للشعر المغربي فرصة الانخراط في واقعه الاجتماعي والاقتصادي بهدف محدد ، وبمعرفة ضرورية ، استلزمت البدء من المقولة الاساسية : **البحث عن الحقيقة من الواقع** ، أي معرفة **الوضع** ، على اعتبار «أن المجتمع الطبقي لم يعرف الا نوعين من المعرفة ، أحدهما معرفة النضال من أجل الانتاج ، والآخر ، معرفة الصراع الطبقي» ، **وبدون معرفة كاملة نسبيا ، يستحيل أن نتقن الشعر الثوري ، أي ان نتقن اللغة التي تفهمها الجماهير فنيا** •

- ٢ -

ان محمد ابن دفعة في هذا الاطار ، ليس وحده من يفترض وجود ذاته **خارج** الواقع الاجتماعي ، بل وحده فقط من يفترض **قطيعة** بين ذاته وواقعه • وهذا التصور ذاته انعكس في الديوان تقنيا ، اذ رتبت القصائد بطريقة توحي بهذه القطيعة (قصائد الحب ، تليها قصائد ذات محتوى اجتماعي ـ وطني) •

وأخال أن المقدمة القصيرة جدا التي كتبها ابن دفعة لمجموعته الشعرية ، وثبت فيها «أنها وصلت اليك (ويعني القصائد) لتثبت لك فعالية **العمل الاشتراكي** ، العمل الجماعي ، انها حركة تعبر عن غيرة الانسان المثقف في بلادنا ، وعمله في دعم الفنان في أداء رسالته •• ان الطريقة التي ظهرت بها هذه القصائد ، **تجربة جديدة في سبيل نشر الكلمة الصادقة**» • هذه المقدمة الى جانب الافكار الاخرى التي تضمنتها ، تعلن هذه القطيعة مجددا ، عندما يفترض الشاعر ، أن «الغيرة» كمفهوم أخلاقي ، هي ما حركت فيه منبه «أداء الرسالة»

و «خدمة الوطن» ، على اعتبار أن الفنان ـ الشاعر ، فوق أنه يشكل عالما خاصا ، يبقى دوره محصورا فى التعبير بصدق عن تجربة جديدة •

ما معنى العمل الاشتراكي ، الوارد فى المقدمة ؟

ليس صدقا أن المجموعة تحمل رؤية اشتراكية لواقع معين ، وليس صدقا ، أن الشاعر يتبنى المفهوم الاشتراكى العلمى عن التطور الاجتماعى بل الاقرب الى الصواب ، انطلاقا من المجموعة ذاتها ، أن محمد بن دفعة يفترض وجود عالم آخر ، قائم خارج الذات ، تسوده علاقات «اشتراكية» بمفهوم لغوى ، وليس بمفهوم علمى ، أى عمل جماعى قائم على تصور بدائى لعلاقات الانتاج فى المجتمع المغربى، تلك العلاقات التى تعكس تداخل الافراد ووحدتهم فى عمل مشترك ، ذى أهداف مشتركة ، ومن ثم فالمجموعة ، كما يفترض الشاعر ، «سوق» تخدم هذا التداخل الذى تعبر عنه الوحدة والتآلف ، وسيحاول اثبات فعاليته •

من يقرأ الديوان بحثا عن مدلول «العمل الاشتراكى» يصل حتما الى المفهوم الذى حدده الشاعر له • أى المفهوم الذى ينطلق من تخمينات ذاتية لواقع قائم بعلاته • فى (ص ٨) على سبيل المثال التخمينات التى تنظر الى الواقع من زاوية الاحساس «بالمسؤولية» تجاه الانسان المغربى ، وتجاه ظروفه ، ووجوده بصفة عامة •

ماذا يستطيع الشعر فى هذا المستوى ؟ انه (عند محمد بن دفعة) ١ ـ قصة عن كل حر • ٢ ـ خفقة القلب الصديع • ٣ ـ دموع محروم وحيد • ٤ ـ دمع مظلوم سام الذل عن عبد وضيع • انه أبدا احساس مأساوى حيال ما هو قائم وموجود وملموس ، احساس من النوع المبتدع • أن يكون الشعر تقريرا لحال الحر والقلب الصديع والمحروم والوحيد والمظلوم ، فأمر لايتعدى وجوب التأسى والرثاء ، يحمل التعاطف هما ثقيلا ، ويغرق فى تلذذ هائم يستعذب الآلام ، لايتعدى

الاشفاق والنواح ، لما أصاب ويصيب «الاخرين» فى معركـة الحيـاة والموت ·

الى هنا «العمل الاشتراكى» المعبر عنه ، لايسجل أكثر من هموم الشاعر وذوب قلبه وكربة مهجته وأسى دموعه ، فى عملية شاقة هى مدلول البحث الصرف عن «المسؤولية» ، مسؤولية الشاعـر تجـاه الآخرين ، مسؤولية غير محددة ، وذات طبيعة عائمة · هل هى بكاء قدر الانسان المغربى ؟ هل هى رثاء ظروفه وموته البطىء ؟ هل هـى معايشة متأسية لهمومه ؟ · الاكيد ، أنها معايشة متأسية **لواقعـه** · فالشعر ــ الوسيلة ، يصبح الشعر ــ الهدف : تعزية الانسان المغربى واستصباره على النوائب القدرية · يقول :

قصيدى ان نظمته
لى شقاء
ويشقينى ما كتمته فى ضلوعى ،
قصيـــدى
دمع محروم وحيد
ترى عيناه أفراح الجموع ،
يضيع شبابه
فى حفظ عهد
ويخلص فى هوى الف مضيع ،
ويصبر فى الجفا ،
والقلب واه من الاوجاع
فى حال النزوع ،
قصيدى دمع مظلوم
يعانى من الانام
كل جوى شنيع

• • •

قصيــدى

ما قصيدى سوى نواح

يروم مع الدجى

ومع السطوع •   (ص ٩ ـ ١٢)

للتدليل فقط على أن مهمة الشاعر خارج «العمل الاشتراكـى» كانت بكاء مرا ، حزينا على عتبة الواقع الاجتماعى برؤية ذاتية غارقة فى الرجاء الصوفى •

القصائد (هذا أنا ص ١٣ ـ خيانة قرش ص ٢٢ ـ أنا منسـى ص ٣٠ ـ دغدغة الوتر ص ٣٤ ـ حكاية عن الحب ص ٤٣ ـ اعترف يا قلبى ص ٥٠ ـ بقية كأس ص ٥٦ ـ العاشق المتمرد ص ٥٩) تدخل فى نفس الاطار وتنهل منه ، **بحكم المنطلق الذاتى الذى يشكل الموقف العام فيها** • هنا تتبخر أحلام «العمل الاشتراكى» تحت رحمة العواطف الملتهبة الزائدة : الحب ، الحزن ، القلق ، اليأس • وتعكس الصورة الشعرية ذاتها شفافية هذه الحالات النفسية ، حين تفضح موقـف الشاعر فى زحمة التصورات اليومية ، من اهتماماته المنفردة ، وأشيائه الخاصة ، **اذ لاشىء أقرب الى معرفة الموقف الفكرى ، عند الشاعر ، تجاه الموجودات ، والوقائع الحياتية ، من معرفة موقفه الفكرى بدقـة من الذات والعالم • وحين تعكس الذات قمة أزمتها الحاضرة أو الغائبة أو المأمولة ، تعكس حتما وبصدق تصورها المأزوم للعالم الخارجى •**

ان ما يهتم به محمد بن دفعة فى هذا المجال ، هو الافراج عـن عدد غير قليل من الرغبات الذاتية الآسرة ، يكـون الشعر مجالهـا الرحب ، لابراز التصور الخاص ، عبر الصور الشعرية واللغة ، من مجمل الاهتمامات • لينكفىء الشعر ـ الموقف الذى يحتمه «العمـل الاشتراكى» (الذى لوح به الشاعر فى المقدمـة) الى داخـل «اللغـة

الصادقة» ، لغة التعبير عن الاحساسات الرومانسية (أحقا هذه هي اللغة الصادقة !) ، لنجد أنفسنا أمام - - من المعطيات الفردانية ، تناقض العمل الجماعي الذى افترضه الشاعر فى البداية • أكيدا يصبح دور اللغة «الصادقة» منطلقا لكشف الذات وتعرية أحلامها •

ولعل «صورة» الشاعر كاملة فى قصيدة (هذا أنا) مباشرة تؤكد هذا الرأى • يقول :

انا وحيد هائم
دامي الوتر
وبزورقي المنكوب
تهت عن البحر
وغرست فى الرمل مركبى
حتى غبر
شجن حياتى
تموج بالغم والكدر
أمسى ، شيخ واجم
يروى الذكر ••
هذا أنا
شاج يحنطه الخدر
لا أسوة بغد بروق
ولا ذكـر •
اليوم يأس شامل
والامس شـر
وغدى رماد قبل
أن يقدح الشرر • (ص ٢١) •

فى صورة واحدة ، تجمعت كل معالم الذات المعزولة : الوحدة ، الهيام ، شجن الحياة ، الغم والكدر ، اليأس الشامل ، شر الامس ٠٠ الخ ٠٠ في مقابل واقع آخر يعلن الوفرة والقوة والحياة العميمة ٠ الوحدة ، احساس بورجوازى صغير ، عندما يعجز صوت الشاعر عن حل معضلة الانحياز الطبقى ، والانتماء بصدق الى الجماهير ٠ وكل تجلياتها ، توقع هذا الاحساس فى دوامة من الاضطرابات النفسية الغير المبررة ، الا فى حالة لزومها بالنسبة للشاعر وحده ٠ ذلك أن **منطق** افتراض الذات خارج الواقع الاجتماعى ، **يسلب** الشاعر كل تصور منطقى لهموم «الآخرين» ، الذين نفترض أن الشاعر يتوجه اليهم ٠ ومن ثم يختار قفصا زجاجيا ، يكون هو سجنه ومحنة عذابه فى استهلاك الاحلام والتصورات الخيالية ، **وعندها يصبح الشعر ، من ضمن وضع متخلف اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ، هو من يكرس منطق هذا التخلف ومبررات سيادته** ٠ ان افتراض العزلة ، ليس له ما يبرره ، الا **الانقطاع** الكلى عن معايشة الحياة الاجتماعية والسياسية والتجرد الصوفى ، والاستسلام والنكوص ٠ ومن هنا يفقد الشاعر مبرر وجوده كشخص فاعل ومفتعل بما يحيط به ويعايشه ، الا اذا كان الانقطاع **اختياريا مبدئيا** ، ومن ثم يحسب الشاعر الذى يعلن «العمل الاشتراكى» الى جانب القوى المضادة لتطور التاريخ والانسان والمجتمع ٠

انه انطلاقا من الصورة العامة للشاعر ، أى انطلاقا من الوحدة والهيام واليأس الشامل ، يكتمل التصور الفيزيقى عند محمد بن دفعة لما حددته فى البداية (افتراض قطيعة بين الذات والواقع) (٤) وكل القصائد التى تندرج فى هذا الاتجاه ، تثبته وتؤكده ٠ حقيقة يختلف بناء الصور الشعرية فى كل قصيدة ، وطريقة الاداء فى كل قصيدة ، ولكن **الموقف العام** هو نفسه ، يبقى معلنا ، كما لو كان علما يميز

---

٤ ـ راجع قصيدة «خيانة قريش» ص ٢٢ ففيها يكتمل هذا التصور ، ويتعمق ، وهى من بواكر انتاج الشاعر ٠ ٢٥ يناير ١٩٥٢ ٠

الشاعر ، ويحدد موقفه بدقة من المشكلة الاساسية ، مشكلة توظيف الشعر لصالح أوسع الجماهير ، اذا لم يستطع هذا الشعر أن يكون نابعا من صلبها • ويطغى الاحساس بالذات تباعا ، متراوحا بين مناجاة الحبيب (العالم الثانى لدى الشاعر) ورفض الحب ، بين الشكوى (كتعبير عن ألم) والصراخ (كاستشعار للالم) ، وينتهى الشاعر الى الرأى الذى حدده سلفا :

« كل أحلامى انطوت
لاعيش على كدر
دقت فى هذه الدنى
كل صنف من البشر »

معلنا بمبدأ ثابت ، ما فرضته الوحدة من قبل ، تنفيذا لقرارات ذاتية، تجد متنفسها فى طرح العزاء ، كبديل ملحاح للصمود والتجلد ، وما دامت العواطف الآسرة هى التى تخطط لهذا المنحى ، وتستحكم قبضتها فى رقبة الشاعر ، فترغمه راضيا ، فمن الاكيد ، أن الشعر كاطار يشيع لكل شىء ، يعثر على فائض الرومانسية ، الذى وفره (بن دفعة) فى عزلة عن قضايا المجتمع والوطن ، **تلك الرومانسية المريضة التى تتعلق بأذيال الحب ، للخلاص من محنة الواقع الملموس** وتركن الى العيش الكدر ، لانه من صنعها ، وتضيق بالبشر ذرعا لانها ترفض معايشتهم فى الزمان والمكان المعينين •

وما يوفر لهذه الرومانسية مزيدا من الاستقرار المكين ، هو استعذاب الشاعر لها فى سنة ١٩٦٧ ، وفى واقع أكثر من ذلك ، لايحتمها قطعا ، انه يرفضها ، اذا كان الرفض يعنى أن لا خيار للفرد بين أمرين : الانخراط أو القطيعة • ومن قبل أعلن محمد بن دفعة ، أن قصائده تأتى فى وقت محدد ، لتثبت للقارىء «فعالية العمل الاشتراكى» ، العمل الجماعى ، أى أن الشاعر ، مبدئيا ، كان واعيا بالموقفين معا ، ولم يكن الخيار ، الا فى مستوى أدنى ، بمعنى بين

أن يكون شعره مثبتا هذه الفعالية ، أو غير مثبت لها ٠ ولكن السرور بالذات الى حد الولع ، حتم أن يتبخر الموقف الاول ، موقف الانخراط ، لان اعلانه كان سابقا لمرحلة متخلفة يعيشها الشاعر بكل ثقل عواطفه وكثار آماله ٠ ولعل فكرة الانخراط المسبق كانت حلما ، بذل الشاعر ما فى وسعه حتى يقتنع بجدواها ، بعيدا عن ممارسة أى **نقد** جـدى ، يضمن له فعلا انخراطا من نوع **فعلي** ٠ وكانت ايهاما للقارىء «الطيب» حتى يجد فى محمد بن دفعة ، ذلك الشاعر الذى تشبـث «بالعمـل الاشتراكى» لفظا ، وبرفضه الممارسة فعلا ٠

ولعل لعبة البورجوازى الصغير ، تتحدد هنا بأوصافها الكاملة : يرفع الشعارات الطنانة والبراقة ، وينحاز فى المقابل الـى أقصـى اليمين ، عندما يعجز عن ترجمتها فعلا ، الى واقع ملموس ، الى ممارسة تكون شاهد اثبات لوجوده ، من ضمن ظروف معينة ٠ **أن ينحاز الى اليمين ، معناه شعريا ، أن يستبدل الواقـع بالذات ، وأن يمـارس أبشع التشنجات العاطفية ، درءا لنزوات حادة ، فى طريقة التعبيـر عن الذات** ، وكثيرا ما يغلف محمد بن دفعة جو شعره بهالة من الحزن ، تتميما للمشهد العام ، فتمسى ذاته فريسة للنسيـان ، والبـؤس يقول :

بين آلامي وأمسي ، انا منسي
رغم أشواقي وبؤسي ،
رغم همسي ، وصراخي ، لم تحسي
(ص ٣٠ ـ أنا منسي)

• • •

قالت : الحزن عاث
فى زهر أحلامنا
يا خدين التغني
أين نشيدك المستحر ؟

اين نجوانا ؟ والهوى ؟
اين نشوانا ؟ والسمر
اين ؟ قلت : كفى
فلم يبق مما مضى أثر
كل احلامى انطوت
لاعيش على كدر **(ص ٣٨ ـ دغدغة الوتر)**

صوت الشاعر منفردا ، هو كل ما يظهر حزينا ، ومتألما فى جميع القصائد للاعتبارات السالفة • وما يمكن استخلاصه هو أن الشاعر يكرر نفسه فى أدوار تختلف ، باختلاف طبيعة الموضوع الذى يجند نفسه للتعبير عنه فى الحب والحزن ، والقلق والضياع ، سلسلة واحدة من الاستقراءات النوعية لموضوعات مستهلكة فى الشعر المغربى والشعر العربى بصفة عامة •

ولعل سر الولع الوحيد بها ، هو ما تمنحه من الاعتزاز والنشوة لذاتية الشاعر ، كتعويض مجاني عن حرمان أبدى تمليه الظروف القهرية فى بلادنا ، فى مختلف مجالات الحياة العامة •

ان تشبث محمد بن دفعة ، **بما هو ذاتي** لايمكن أن نجد تفسيرا له **الا فى موقف الشاعر نفسه من مختلف القضايا الوطنية ، القضايا التى ستبقى فى شعره مؤجلة لفترة قادمة ، قد تطول وقد تقصر ، ولكنها رهينة بتطور موقف الشاعر من العالم المحيط به ، ومن العالم الخارجي ، ومن الآخرين • ولما كان الشاعر ، واحدا من الذين عايشوا جزءا من التاريخ الوطنى التراجيدى ، بأحداثه وصراعاته ، اعتبارا من ١٩٥٦ ، على الاقل ، كان من المفروض ، بداهة ، أن يكون شعره صورة تعكس تلك الاحداث من منظور خاص ، يبالغ أو يقصر فى نقل الاحداث والتعبير عنها ، يحورها بحسب فهمه الخاص لها ، أو يوجهها ، ولكن بكل تأكيد ، الاحداث والوقائع التى تسجل حضور الشاعر فى حلبة الواقع الاجتماعى وفى معاركه السياسية الكبرى • ان غياب هذه**

الوقائع ، يعني غياب الشاعر ذاته ، وغيابه يعني أن التاريخ الوطني ، لايعفيه من الادانة الثقيلة ، ثمن نكوصه وتخاذله ٠

مجددا يجب أن نفهم هنا ، أن مقولة افتـراض الذات خـارج الواقع الموضوعي ، هي ما تملي هذه الاعتبارات دون سلطة **فعلية** غير سلطتها ، وهي التي حددت موقف الشاعـر ، فكريـا ، في البدايـة والنهاية ، من كل ما سبق أن أشرت اليه ٠

- ٣ -

المستوى الثاني الذي يطرحه الديوان ، يتعلق باستباح منطقة بالغة الحساسية في الشعر المغربي الحديث ، طرقها من قبل مصطفى المعداوي بنوع من الشفافية والاتزان ، وبنوع من السطحية أيضـا ، مستوى التغني بالثورة الجزائرية في ظرف محدد ٠ ولعل محمد بـن دفعة ، فيما خصصه لها من قصائد ، يصل الى مستوى معانقة القضية، بصدق واخلاص ٠ ان هذه القفزة **النوعية** التي يسجلهـا الشاعـر ، تجيء ، ربما ، مناقضة لواقع تجربته الشعرية بصفة عامة ، كتجربة تعتمد على مفارقة ، حددتها فيما قبل (افتراض الذات خارج الواقـع الموضوعي) ٠ وفي هذا المستوى نفسه ، يخضع محمد بن دفعة ، ماهو **موضوعي** ، قائم خارج الذات ، **الى ما هو من صميمها** ، تنفيذا لالتزامه الذي تمليه ظروف واقع الشاعر وانتمائه ومستواه الطبقي الذي يصدر عنه ٠ الجزائر **هي الحب** في مستوى ما ، وهي الامل ، وهي المستقبل الذي سيفجر ما تجمع في صدر الشاعر من مفاخر وبطولات ، نارا ، خيرا ، انتصارا ، أي أن الجزائر في عرف الشاعر ، لم تخرج من دائرة الذات ، حبيسة تجسد حلمه في ثورة متوقعة أو مأمولة ، لاتستند الى تحليل معين ، يحدد منطلقها ويرسم أهدافها ٠ عندما ارتبط مصطفى المعداوي على سبيل المثال بثورة الجزائر في الظروف التي جسـدت نمو هذه الثورة وتطورها ، ارتبط حقيقة بمستقبل الشعب المضطهد ، أي ذلك الارتباط الذي ينشد قضية مبدئية ـ قد تكون مجال الشعر أو اي فن آخر ـ قضية الجماهير الشعبية في القطر الجزائري فـي

نضالها من أجل الاستقلال والحرية والديمقراطية ، والعدالة • وكان الشعر عند مصطفى فى الثورة الجزائرية بصفة خاصة ــ على قلة انتاجه ــ يضع خطا فاصلا بين مسألتين مركزيتين : العدو والصديق، الثورة والثورة المضادة ، الجماهير ، والعدو التاريخى والقومى والطبقى للجماهير • أى أن التعلق بشبح «الجزائر» كاسم له ايحاءاته الخاصة ، لم يكن الا تعلقا يحمل ما فى معناه ، التعلق بالجماهير صانعة الثورة • لكن محمد بن دفعة يقلب هذا التصور على رأسه ، لتصبح الجزائر والثورة والمستقبل ، خيالات فى مادة شعرية ، تخضع لتقنينات الوزن والقافية ، محققا بذلك أمنية (الذات) القصوى ، عندما يستنفر عواطفه وكوامن قلبه نحو كل ذلك ، من موقع البحث عن «المطلق الشعرى» • وهذا وحده يكفى ، حتى يختلط على الشاعر ما حاول مصطفى أن يسنه فى الشعر ، رسما كما قلت للخط الفاصل بين مسألتين مركزيتين فى الرؤية الشعرية نظريا : العدو والصديق• **ان طرح الاسئلة البديهية جدا : الشعر لصالح من ؟ ولماذا ؟ وعلى أى أساس ؟ وكيف ؟ تكفى لتجلية الخلط النظرى الذى يجشم الشاعر عناء البحث عن «مطلق» وهمى ، لايمكن أن يتحقق • لقد كان محمد بن** دفعة ، صادقا تماما ، عندما صب كامل عواطفه فى «الثورة» وعندما دفن هدفه فى مستقبلها • **لكن التوجه الكلى للاحساسات العاطفية ، يوقع الشعر فى رومانسية مريضة ، علتها انعدام التصور الواضح للواقع الملموس** • ما عبرت عنه سابقا بالقفزة النوعية ، لم يكن الا فى مستوى نقل **القضية** من نطاق **الذات** الى مجال الواقع ، نقلا يوحى بتحول فجائى فى الرؤيا والتصورات والاهتمام ، ولكن هذا (النقل) ذاته يلغى الواقع من حيث تستبد الذات بكل شىء ، وتصبح المعادلة: الجزائر ــ البعد الثانى لواقع الشاعر محمد بن دفعة • ولعل الفرق بين أن تكون الجزائر هى الصراع ضد قوى مضادة للاستقلال والتحرر ، وبين أن تكون ملحمة تروى الاستشهاد والبطولة والماضى العربى «المجيد» ، هو نفسه الفرق بين التصور الواقعى ، والتصور الذاتى ، الاجوبة عن الاسئلة أعلاه ، هنا ، تخضع لهذا الحكم مطلقا

الشعر لصالح من ؟ لصالح الجزائر · ولماذا ؟ لنصرة ثورة الجزائر ، وعلى أي أساس ؟ على أساس التصور الذاتي العاطفي ، وكيف ؟ شعرا· ومن هذا المنظور ذاته يستعير محمد بن دفعة العديد من الكلمات الموحية : الثورة ، الاحرار ، الصمود ، المجد ، الكفاح ، الشعب (راجع قصيدة نشيد الغد ص ٧١) ليدلل على قوة ماض نسخه حاضر الجزائر في مقارعة الاستعمار الفرنسي · هذه الاستعارة توظف لحساب موضوع آخر هو هدف الشاعر ، أعني التدليل من جديد على قوة العرب وشهامتهم وعراقة مجدهم ، **فخرا في واقع الاستعمار ، انتصارا في واقع الهزيمة** ، ان هذا الماضي ـ كما أوضح مصطفى المعداوي في بعض قصائده ـ قد يكون **سندا شرعيا** يفلح في اثارة العواطف ، ولكنه لايكفي **لنصرة** الجماهير الجزائرية في كفاحها ضد الاستعمار والسيطرة والاستعباد · محمد بن دفعة **عندما اتكأ على هذا الماضي البعيد ، كان يبحث عن أمان الذات وملاذها الوديع ، بل كان يبحث في التاريخ عن مطلق انتصار ، مطلق شجاعة ، مطلق مجد** · وفي قصيدة (صوت شعب ص ٧٥) يستمر نفس الاداء ، ولكن الشاعر يقترب من منطقة الحرارة ، أكثر التصاقا بالواقع الجزائري · يعتلي منبر الخطابة ، بصوت الفدائي نفسه ، ليعلن أن الثورة «لن تخمد ، وأن الفدائي لايخاف الموت» تطغى المباشرة ، عندما تكون القصيدة **لحظة** بديلا للمنشور السياسي · ويتعلق الشاعر بنفس الماضي المستهلك من قبل ، بهدف احياء «الصوت القومي» للامة العربية · ولعل الخطأ في تصور الشاعر ، ينشأ عندما يحاول القفز عن مضمون الواقع الاجتماعي بعلاته ، بالرجوع الى نقطة البداية التي تعلن أن الامة العربية ، أمة خالدة ، لاتنهزم، وأن استمرارها يعني أن «أبطالها» هم من يصنع التاريخ ، تجاوزا تشكل هذه النظرة **ايحاء** بمضمون هادف ، ولكنه مضمون **مموه** ، لايسجل الحقيقة كاملة من حيث يريد أن يجهر بها ·

المتلقي هنا ، ينخدع بنبرة الخطابة العالية، وينبهر بقوة الايمان الاعمى ، بقوة سحرية ترجع لهذه الامة ـ الجزائر ، حيوية الانتصار

وسر البقاء خارج الاطار التاريخي ، وخارج الصراع • بينما المفروض أن يكون المتلقي ، سلبيا أو ايجابيا ، هو من يدخل مع الشاعر عبر التصورات ، في **حوار** يستهدف **ايجاد المحتوى الحقيقي** لانتصار الثورة بالممكنات الحقيقية ، التي يعلنها حضور الجماهير (صانعة التاريخ) من ضمن شروط الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي المعاش •

ولعل قصيدة (الجوع والنار والنهاية ص ٩٤) تحقق ذلك المستوى الذي حاولت أن أوضحه ، مستوى التعبير الذي تتشابك فيه عناصر مختلفة ، تجسد في أعلى مستوى **قدرة الجماهير على تحقيق الانتصار** وفرض الوجود المشروع • الحقيقة في القصيدة **هي اعتبار «الثورة»** مشروع تغيير دائم ومستمر ، بفعل القوى المخططة لسير حركتها ، تضمن انتصار القوى الجذرية على الاستعمار والعبودية ، في واقع هو الواقع الجزائري ، في فترة ما • ان ما يعطى للقصيدة صدقها الفعلي ، هو قدرة الشاعر ، عبر الوسائل الممكنة ، على خلق **جو من التعاطف الآسر مع قضية جماهرية** ، هي محور النضال اليومي الدؤوب • ودائما في اطار وضع متخلف ، لايمكن للشعر فيه أن يكون الا منحازا ومنتميا ، **الشعر كموقف نضالي** ، وليس كبديل للنضال ، وعندما قال محمد بن دفعة :

عملاق ثائر
شعب الجزائر عملاق ثائر
بالف بنبلا
بألف بنت بوحيرد
بالف الف اعميرو
فعاندوه واصبروا
وعندما يموت صبركم
تحيا الجزائر •

كان مبدئيا يصادق على مجريات «الاحداث» بصدق ونبوءة ، يبرز الايمان «بعدالة القضية» كبديل لتسجيل موقف ذاتي نحوها ، ويختفي «البطل الصانع» بحضور ألف (بنبلا) وألف اعميرو • وهكذا عبر ايمان محدد بعناصر الواقع الثلاثة : الجماهير، الارض ، النضال، يتحقق ذلك **الشعر ـ الموقف** • هل يستطيع محمد بن دفعة أن يحقق ذلك الشعر ـ الموقف ؟• انه انطلاقا من واقع التجربة ذاتها على المستويين الذاتي والموضوعي ، وانطلاقا من الحقائق العامة التي يجسدها الصراع الطبقي في الوطن العربي ، يفشل محمد بن دفعة في تقديم تجربته منحازة ومنتمية ، كتجربة موقف ، ما دام الموقف مسؤولية تاريخية ، يحددها الوعي السياسي والطبقي بظروف معينة، وهو يستلز معرفة كاملة نسبية بالواقع ، هل يجهل الشاعر واقعه ؟ انه يقفز عن مضمون الصراع فيه • بالنسبة للجزائر كما سبق أن قلت ، يصل محمد بن دفعة الى مستوى التعبير عن (الثورة) بموقف ثابت من عناصره : الوعي السياسي بحتمية انتصارها ، الوعي السياسي بواقع الصراع بين الجماهير وعدوها القومي ، ولكن هذا الموقف الثابت ذاته ، يبقى **رهين التعاطف** عندما يصطنع التقرير في المعالجة والاداء ، وعندما يغرق في الخطابية للتدليل عن عجز ذاتي في التحليل الموضوعي :

تحيا جزائري
أمة عربية
واذا قضيت فداءها
لن أفقـدا
لكن دمي بثراها
ريا خالدا ، وعظامي
تحت حشاها ،
نصرا مغمدا ، (ص ٧٦ ـ ٧٧)

ان هذا التحديد لايعني أن الشاعر يخرج عن دائـرة تصـوره المسبق لمسألة الثورة وطبيعتها ، بل ولدور الشعر • انه يعني فقط ، أن القفزة النوعية التي أشرت اليها ، والتي يحققهـا ، في المعالجـة والفهم ، تبرز بشكل أساسي «التعاطف المبدئي» الذي ينقل القضية من مجال التصور العائم ، الى قلب الشعـور بالفعـل • الا أن هـذا التعاطف المبدئي ، الذي يبدو مقبولا في شكلـه العام ـ المتصـور ، ومنسجما من رؤية الشاعر له ، ومستواه الفكري ، بالقيـاس الـى ظروف المرحلة التاريخية ، **يغرق في التصور المشوقيـن للمسألـة القومية** من حيث يعتز بها ، ويمجدها ، ويضعها فوق كل شيء (منزلة ومقدسـة) ولا يمسها مكروه ، انه بمقدار ما يحاول محمد بن دفعـة ، تقديم البراهين على قدرة الامة العربية على الانتصار ، وسحق المعتدين بمقدار ما يسلم **بمطلق** ليس له أي وجود مادي ، وفوق حقيقة التاريخ الانساني • وبمقدار ما يحاول التدليل على قدرة الجماهير العربيـة ، على صنع الانتصار ، وتحقيقه (وان لم يقل ذلك بوضوح كافي) بمقدار ما يهرب الى العفوية والتجريب والانتقاء • وحتما تعكس هذه المفاهيم، التصور الوهمي في الفكر البورجوازي والبورجوازي الصغير لمسألة الامة ، والثورة ، والجماهير ، غامضا ومشوشـا ، وخاليا مـن أي تحديد • أي التصور الذي يقفـز أولا بأول عـن التنظيـم والوعـي والتثقيف والقيادة ، والشروط الموضوعية التي يحددهـا الواقـع ، والظرف التاريخي محليا ، والواقع الجماهيري •

في الشعر ، هل كان مطلوبا من محمد بن دفعة أن يحدد كـل هذا ؟ في الجواب مسألتان أساسيتان • الاولى : المستـوى الفكـري الذي ينطلق منه الشاعر • وبالتالي فهو الذي يحكم توجهه الى تناول مختلف القضايا ، تعبيريا • والثانية : الموقع الطبقي الذي يصدر عنه، المشكل لفكره ، والمحدد لاتجاه تطوره • ولكن تجربة الشاعر أيضا من خلال ديوانه الاول ، تعكس تخلفه النظري (على المستوى السياسي) بشكل مفضوح ، يعميه عن رؤية الواقع الملموس ، وفي المقابل تنتعش

اللغة الخطابية وتنفتح ويكبر حجمها ، ويذبل الموقف السياسي ويتقلص ، ويصغر حجمه • الشعر في الجزائر ، وفي المغرب ، وفي الحب ، وفي كل ما يخطر على بال الشاعر في هذه الدنيا الواسعة ، **في غياب الموقف السياسي الواضح** ، تضيع رؤياه في متاهات «مطلقة» بغية الاستنجاد بما هو عام ، ويصلح لكل زمان ومكان • ان قصيدة (شعلة الايمان مثلا ص ٩٧) ، مجردة من الخصائص «الجزائرية» يمكن أن تصلح **بذلة شعرية منسجمة تماما** مع فلسطين وظفار ، وأريتريا وفيتنام ، قديما وحديثا ، في الحجم والطول والاتساع • وهذا الشعر المطلق هو «الموقف» الفكري ـ السياسي ـ الذي يدخره الشاعر ليوم ما ، وعند الطلب •

لا وجود للزمن الشعري • تلك الخلاصة المركزة التي حاول أن يبدعها ابن دفعة لتغطية (الموقف الفكري) الذي يبدو منحازا فعلا ولكن **كقرار** مصادق عليه بالاجماع • حقيقة لايتحول الشاعر بسرعة مفاجئة ما بين «الموت حيا» في الجزائر ، وبين «عدمية» الموقف الواضح ، ولكن الاحساس البدائي بوطنية غيورة (اذا مست ثارت ، واذا ثارت ماتت في ساحة الشرف) هو ما يدفع الشاعر الى المثول متهما أمام موقف فيه تناقض ضمني : **مناصرة الثورة الجزائرية ، وبشكل عائم ومجرد** •

وهنا فقط ، يمكن أن نربط مجددا بين العناصر التي حاولت أن أثيرها من قبل : معرفة الصراع الطبقي ، الموقف السياسي والفكري ، دور الشعر ، الثورة الجزائرية • مع الاقرار بأن **حياد** الشاعر القائم على افتراض قطيعة بين الذات والواقع عبر الشعر ، يمنع من صياغة موقف نهائي لتلك العناصر • ولكن في حدود التجربة التي يقدمها الديوان والممتدة من (٥٢ ـ ١٩٦٧) يمكن أن نطرح بعض الاسئلة المساعدة على النحو الآتي :

١ ـ هل كان محمد بن دفعة يهتدي بمعرفة صحيحة لواقع الصراع الطبقي ؟

٢ ـ ماهو الموقف الفكرى ـ السياسى فى شعره ؟

٣ ـ كيف يفهم دور الشعر ؟

٤ ـ ماذا كان موقفه بالضبط من الثورة الجزائرية ؟

ان ما حاولت قصائد الديوان أن تطرحه ، لايثير هذه الاسئلة بطريقة مباشرة ، فعدا لفظة «العمل الاشتراكى» والثورة ، والحرية ، والنصر ، والفداء ، لايمكن أن يعثر القارىء على مضمون فكرى يوازى ذلك • ولكن الاتجاه العام لهذه القصائد ، فى محاولة للخروج بموقف **وطنـى** تجاه الاحداث المعاصرة ، هو ما يفرض ـ بغية الوصول الـى منطلق محدد ـ البدء بطرح الاسئلة البديهية أعلاه ، للوصول الـى الاجوبة البديهية • الخروج بموقف وطنى تجاه الاحداث ، يعنـى فى التحليل الاخير ، المعرفة النسبية بالصراع الطبقى فى مجتمـع مـا • واذا كان يملك محمد بن دفعة مفهوما غامضا ومشوشا عن الصـراع الذى تصدره فترة (٥٢ ـ ٦٧) بثقل أحداثها وسرعة تطورها ، فانه فى الشعر حرب الاسقاط ، فسبغ قصائده بالغموض والتشويـش • نظريا ـ وخاصة فى مجال الثورة الجزائرية ـ حدد موازين القـوى ، فتشبث بموقع الجماهير ، وناصر الثورة ، ورافق تطورها وتعاطف مع أحداثها الكبرى ، ولكنه **عمليا** ، عجز عن طرح تصوراته خالية من شواغل الذات وهمومها وقلقها ، وعجز بالتالى عن فهم الاتجاه العام للاحداث ، **وكانت قصائده خلاصة نهائية للعجز الذى طبع مواقفـه الفكرية بطابع التردد ، وعدم التمييز والتهويم** ، ومن ثم أصبح الموقف الفكرى ، معلقا على المزاج الشخصى ، والحالات النفسية ، والرغبـات الذاتية •

ان طرح السؤال : ما هو موقف محمد بن دفعة من الاحـداث الوطنية ؟ لامبرر له اطلاقا • ففى الوقت الـذى عشعشـت الثـورة الجزائرية ، فى فكر الشاعر ومخيلته ، ومنحها الكثير من اهتماماته ، **تشدد** ، بجبن لا حد له ، فى معالجة المسألة الوطنية • **وفيها شكـل**

الديوان صوتا غريبا ونشازا عن واقعنا الاجتماعي والسياسي • وعدا كون هذا الجبن نتيجة منطقية صرفة للتخلف السياسي والوعي الطبقي عند الشاعر ، فانه سجل الى ذلك ، **المرحلة الرومانسية التي هيمنت على الواقع الثقافي في بلادنا قبل ١٩٦٥ • وطبعت نتاج هذه المرحلة** (القصة والشعر بصفة خاصة) •

ان هذه الاعتبارات تقودنا مباشرة الى طرح السؤال السابق : **ما هو الموقف الفكري ـ السياسي في شعر محمد بن دفعة ؟**

الجواب :

١ ـ جزائريا : اهتمام خاص + مناصرة + تعاطف + ايمان •

٢ ـ مغربيا : لا شيء •

٣ ـ الموقف في شعره عموما : لا شيء أيضا •

والجواب متكاملا ، يفرض طرح سؤال سابق : كيف يفهم محمد ابن دفعة دور الشعر ؟ وهو الذي سيحدد ـ فيما بعد ـ الموقف العام من مختلف القضايا المطروحة في الديوان سلبيا أو ايجابا • وكشعر فارغ من المحتوى السياسي • وينطلق من الذات ، ويعبر عن طموحها، كان الدور الذي ينسجم معه ، فارغا أيضا من أي مضمون اجتماعي ، ومن أي رؤية فكرية • حينما أفلح بصدق في تعرية واقع «الذات» وتغطية قضايا الواقع • كان من الممكن أن تقوم **جدلية فاعلة** تحقق في مستوى ما ، غلبة جانب على آخر ، الا أن غيابها ، **طمس معالم رؤية واضحة لكل ما حاول الشاعر أن يراه بعين واحدة ، ويتنفس في محيطه برئة واحدة** • ودور الشعر هنا يلائم تمام الملاءمة ، الاهتمامات الصغيرة التي حاصرت الشاعر ، فاستحوذت عليه ، وركن لبواعثها النفسية خاصة ، **فنطق محمد بن دفعة شعرا ، حبا ، ألما ، وحدة ، ضياعا ، عشقا وهياما** • وكان في المستوى الثاني ، بصدق ، مهيئا

ـ وخاصة فيما خصصه من شعر للثورة الجزائرية ـ أن يدخل الى منطقة ابداع شعر وطني بمفهوم واسع ، يضمن له الوقوف الثابت ، والغير المحايد ، من مختلف القضايا الوطنية ، وقضايا الوطن العربي عموما • الا أن حياده (على غرار دول عدم الانحياز) أسلمه الى أحضان الذات الآمنة •

وبصفة عامة ، لم يستطع محمد بن دفعة ، أن يقف ولو للحظة جد قصيرة في **مقابل ذاته** حتى يتمكن من وعي متطلبات الواقع الاجتماعي والسياسي محليا وعربيا • هل يملك الشاعر أن يكون خارج الواقع الاجتماعي ؟ لا • هل يستطيع أن يكون محايدا ؟ نعم • ان ذلك يعني الموت أيضا • وفي الحالتين معا ، يقدم ابن دفعة ، الجواب شافيا أكثر ، لانه في المستوى الاول لايستطيع أن يكون الا في حلبة الصراع الاجتماعي ، مع أو ضد • ولا يمكن أن يحقق له الاختيار في المستوى الثاني ، **الا الحياد مع النكوص ، أو الانخراط مع الصراع ، ولقد سقط الحياد في العصر الثوري •**

اللغة والشكل الفني :

ان تجربة ابن دفعة ككل ، أي من الحب الى الجزائر ، مثلت في محتواها ، خطين ، يلتقيان في حدود اللغة التي يكتب بها : يتواجد الشكل التقليدي في بناء القصيدة ، وتركيب صورها الى جانب الشكل الجديد (الشعر الحر) ، دون أن يطغى أحدهما على الآخر • فالشكل التقليدي للقصيدة في الديوان احتضن بحرارة زائدة كل صبوات الشاعر ، وخضع الشكل الجديد ، بنفس المنطق ، لما تبقى منها ، دون أن يكون هناك ما يدعو الى وضع حاجز بينهما •

ومعناه ، **أننا أمام شاعر لم ينبهر مطلقا بالتطور الذي لحق القصيدة العربية بعد ١٩٤٧ بناء وتركيبا ، وصورا** ، ولكنه حافظ على تصوره العام لها • وضمن بذلك **التعايش السلمي** التوفيقي للقديم والجديد ، فاستنجد بالمحافظة طورا ، ولم يزغ عنها الا في حالات

نادرة • فكانت هذه اللعبة المزدوجة ، خصيصة تحسب للشاعر حقا، ولكنها تضعه (سنة ٥٢ ـ ٦٧) على النقيض من التطور الذى بلور اتجاهات شعرية متقدمة ، فى الوطن العربى ، وفى المغرب •

ان ما حاول محمد بن دفعة أن يقدمه في ديوانه الاول ، ليس غير العبور الى منطقة الظل ، التى ارتادها أكثر من فارس مجرب ، فهل انتهى الى الجديد ؟ لا بالقطع • وهل كانت المحاولة مجدية وفى مستواها التجريبى ؟ لا بالقطع • لقد خمن طويلا ، فى أن المزاوجة بين القديم والجديد (عدا أنه تصور مزاجي قائم على التخيل ، ويغفل قانون الصراع) يمكن أن يرضى الذوق العام ، ويعطيه الاحساس «بقدرة» الشاعر (ها هو يجرب كل شيء ، ويجيد كل شيء) على التفنن فى الاداء والتعبير • وكان الامر يتم على حساب التطور الثقافى فى بلدنا ، وعلى حساب التراث الفكرى العربى بصفة عامة • فهل نجح محمد بن دفعة فى ارتياد منطقة الظل ؟ • أكيدا ، فشل فى التعبير بنمطية الشكل الشعرى القديم ، وفشل أيضا فى بلوغ مرحلة الابداع في الشعر الحر • وكانت **اللغة والتصورات التى أبدعها ، والمواقف التى عبر عنها والحالات النفسية التى تعلق بها ، والعواطف التى قدمها** من عوامل السقوط المساعدة فى الفشل ، وبحكم حداثة الشاعر ، جاء المعجم الشعرى الذى غرف منه لايختلف فى شيء عما طوح به جبران خليل جبران فى بداية حياته الادبية على سبيل المثال، أو ما أفنى فيه (حسين عفيفى) عمره وتجربته القضائية (٥) • **ان محمد بن دفعة بعبارة أخرى ، لايحالفه النجاح وفى بناء قصيدة (من الشعر العمودى أو الحر) خالية من تصوره لدور الشعر وهدفه ، وطبيعته ، وأسلوب آرائه ، والقضايا التى يمكن أن يعالجها ،** وبالنتيجة : كانت اهتماماته وتصوراته محدودة ، وجاء شعره محدودا

---

٥ ـ انظر على سبيل المثال ديوانه النثرى «الغسق» وهو محاولات رديئة فى التعبير عن احلامه وخيالاته واوهامه ، بواسطة قصيدة النثر ، بالاضافة الى الرومانسية الحالمة التى يطفح بها الديوان •

كانت اهتماماته وتصوراته واضحة ، فجاء شعره واضحا (٦) . ومن يقرأ الديوان ، يخال نفسه أمام شاعر مبتدىء ، يتصيد عبارات منمقة، للتدليل على حالات نفسية ، يعتقدها جوهر الشعر ومجاله . واذا كان هذا الانطباع حتما يضع الشاعر فى «سكة» التطور ، ولا يفصله عنه، فانه مع ذلك لايبحث له عن مبرر اصدار الديوان ، بل عن مبرر الزج بجملة من القضايا (من الحب الى الجزائر) كانت فى حاجة ماسة الى مزيد رعاية وتطور (أن الشعر موقف ومسؤولية) .

وهكذا شكل الديوان فى مجموعه «بطاقة معايدة» فى سنة ١٩٦٧ ، بعد أن اختصر التاريخ الوطنى ابتداء من ١٩٥٢ ، فى الثورة الجزائرية ، وفى الحب الرومانسى ، وفى اللغة ، وفى الحياد ، وفى الذات ، وفى «العمل الاشتراكى» ـ الوهم ، وفى الشعر عموديا وحرا .

مـاى ١٩٧٣

الدار البيضاء : عبد القادر الشاوى

---

٦ ـ ضد الوضوح هنا ، هو التزام موقف فكرى محدد .

لوى ألتوسير

الفلسفة بين العلم والايديولوجيا

ترجمة : محمد سبيلا

ان جمعيتكم لمشكورة عن الشرف الذى أولتنى اياه باستدعائى لتقديم ما تدعوه منذ تأسيسها وما ستدعوه بدون شك مدة أطول بلفظ جاف : حديثا ·

القسم الاول

ان للعالم * كامل الحق فى تقديم حديث أمام جمعية عالمة · ان الحديث والنقاش ليسا ممكنين الا اذا كانا علميين · ولكن هل الامر كذلك بالنسبة لحديث فلسفى ومناقشة فلسفية ؟

حديث فلسفى · لقد أثار هذا المصطلح ضحك لينين حقا ، هذا الضحك العريض والصريح الذى اعترف به صيادو «كابرى» بأنه من جنسهم ومعسكرهم · حدث هذا بالضبط منذ ٦٠ سنة ، أى سنة ١٩٠٨ · كان لينين اذ ذاك فى «كابرى» صحبة جوركى ، الذى كان لينين يحب فيه طيبوبته ، ويقدر موهبته ، والذى كان يعتبره مع ذلك بورجوازيا صغيرا ثوريا · كان جوركى قد استضافه الى «كابرى» ليشارك فى مناقشات فلسفية مع مجموعة صغيرة من المثقفين

* العنوان الاصلى للبحث : لينين والفلسفة ·

البلشفيين ، اى الاوتزوفيين الذين كان يشاطرهم آراءهم • لقد كانت سنة ١٩٠٨ الايام التى تلت ثورة أكتوبر الاولى اى ١٩٠٥ ، سنة انحسار وقمع الحركة العمالية • وكانت هناك أيضا بلبلة بين صفوف «المثقفين» ، بما فيهم المثقفون البلشفيون ، وقد شكل عدد منهم مجموعة تعرف فى التاريخ تحت اسم : «الاوتزوفيون» (١) •

كان الاوتزوفيون ، من الناحية السياسية ، يساريين متطرفين، لمناداتهم باجراءات جذرية : سحب OTAZOVAT ممثلى مجلس الدوما ، رفض كافة اشكال العمل المشروعة ، الانتقال المباشر الى النشاط العنيف • ولكن هذه الادعاءات اليسروية ، كانت تخفى وراءها مواقف نظرية يمينية • لقد كان الاوتزوفيون متشبثين بفلسفة الموضة ، أو بموضة فلسفية ، أى «بالتجريبية النقدية» التى جدد اهابها الفيزيائى النمساوى الشهير : ارنست ماخ (٢) • ان هذه الفلسفة ، التى هى فلسفة رجل فيزيائى وفسيولوجى (لم يكن ماخ اول من قال بذلك: لقد ترك فى تاريخ العلوم اسما من بين الاسماء) لم تخل من وشائج تشدها الى فلسفات صاغها بعض العلماء ، كفلسفة بوانكاريه ومؤرخى العلوم كدوهيم ورى REY

تلك ظواهر نشرع اليوم فى فهمها : حينما تشهد بعض العلوم ثورات مهمة (كما هو الامر بالنسبة للرياضيات والفيزياء اذ ذاك) ، يظهر ثمة دوما فلاسفة محترفون ليعلنوا أن «أزمة العلم» أو الرياضيات

---

١ ـ الاوتزوفيون : من الكلمة الروسية اوتزوفات (سحب) • يشار بها الى التيار الانتهازى الذى برز عند قسم من البلاشفة (بوغدانوف، الكسنسكى، لوناتشارسكى وغيرهم) • بعد فشل ثورة ١٩٠٥ ـ ١٩٠٧ عارض هؤلاء طريقة العمل العلنى الشرعى وطالبوا بسحب النواب الاشتراكيين الديمقراطيين من الدوما ، ورفضوا العمل فى النقابات وغيرها من المنظمات الشرعية للشغيلة •

٢ ـ ماخ : (١٨٣٨ ـ ١٩١٦) عالم فيزيائى نمساوى ، وفيلسوف هو مؤسس التجريبية النقدية • يعتبر الاشياء مجموعة احساسات معارضا بذلك المادية • يتبنى آراء هيوم ويرفض العلية والضرورة بدعوى أنها لاتوجد فى التجربة • يعتبر التصورات رموزا للاحساسات والعلم وصفا للاحساسات وجملة فروض تغنى عن الملاحظة المباشرة • تعترف جماعة فيينا من الوضعيين المناطقة بأثره عليها (المترجم) •

او الفيزياء أزمة مفتوحة • ان هذه الادعاءات الصادرة عن فلاسفة ، هي ادعاءات واردة ، اذا صح لنا القول : لان زمرة بكاملها من الفلاسفة تمضي وقتها في التنبؤ ، وبالتالي في ترقب لحظة احتضار العلوم ليحكموا فيها آخر القرابين المقدسة للفلسفة ، وذلك «من اجل انتصار أعظم لله» (Ad Majrem gloriam Dei)

ولكن الادهى من ذلك ان يظهر في نفس الوقت علماء للتحدث عن أزمة العلوم ويكتشفون في انفسهم بغتة مواهب فلسفية مذهلة حيث يتصورون انهم قد تحولوا فجاة الى فلاسفة ، في حين انهم لم يكفوا أبدا عن «ممارسة» الفلسفة ـ حيث يعتقدون انهم يتلفظون بالهامات ، في حين انهم انما يرددون ترهات وهرطقات تنتمي الى ما تجد الفلسفة نفسها مدفوعة الى اعتباره تاريخا لها •

ان لدينا ، ونحن فلاسفة ولو من حيث المهنة ، ميلا الى الاعتقاد بانه في حالة «ازمة» ، فان هؤلاء العلماء ، اذا ما حصل نمو في اى علم يعتبرونه بمثابة انعكاس خاص لها ، يصابون بازمة فلسفية مشهودة وجلية ، بنفس المعنى حين نقول عن طفل انه مصاب بازمة حمى • ان فلسفتهم التلقائية ، اليومية ، تصبح في هذه الازمة ، مشهودة لهم هم أنفسهم •

ان التجربة النقدية لماخ وكل منتجاتها الصغيرة ، اليومية ، البوجدانوفية (٣) ، واللوناتشارسكية (٤) ، والبازاروفية •• الخ ،

---

٣ ـ بوجدانوف : فيلسوف اقتصادى روسي • التحق بالبلاشفة سنة ١٩٠٣ • حاول ان يكون منهجا خاصا به هو «مذهب الوحدانية التجريبي» • وهو نوع من المثالية الذاتية التي انتقدها لينين • نظم حوالى ١٩٠٧ في جزيرة كابرى مدرسة معادية للحزب وطرد من الحزب سنة ١٩٠٩ • وهو مؤسس «جماعة الثقافة البروليتارية» التي هاجمها لينين لانعزالها ورفضها للتراث • يعتبر أحد أتباع ماخ في روسيا •

٤ ـ لوناتشارسكي (١٨٧٥ ـ ١٩٣٣) هو أيضا من أتباع ماخ • تخصص في نظرية الفن • أصبح بلشفيا سنة ١٩٠٣ • في أعقاب هزيمة ثورة ١٩٠٥ خرج عن البلشفية وأصبح ماخيا من انصار «بناة الله» • في ١٩١٧ عاد الى الحزب وشغل منصب «مفوض الشعب للثقافة والتعليم» • في سنة ١٩٣٠ انتخب لاكاديمية العلوم • (المترجم) •

هى أزمة فلسفية من هذا النوع · وتلك أحداث مزمنة · لكى نعطى فكرة معاصرة صغيرة عن هذه الازمة ، نقول ان الفلسفة التى ينهمك اليوم في صنعها بعض العلميين البيولوجيين والنشوئيين وأصحاب اللسنيات ·· الخ ، حول موضوع «الاعلام» ، هى «أزمة» فلسفية صغيرة من هذا النوع ، بصورة جذلى ·

ولكن ما هو ملحوظ فى أزمات العلماء ، هو انها ازمات موجهة دوما من الناحية الفلسفية فى اتجاه واحد وفى نفس الاتجاه : انها تتبنى القضايا القديمة التجريبية أو الصورية ، أى القضايا المثالية بعد تجديدها : انها تتخذ دوما من المادية عدوا لها ·

لقد كان الاوتزوفيون اذن ـ تجريبيين ـ نقديين ولكن بما انهم كانوا ماركسيين (اذ كانوا بلشفيين) فقد كانوا يقولون ان على الماركسية أن تتخلص من هذه الميتافيزيقا السابقة على النقد التى هى «المادية الجدلية» ، وان عليها لكى تصبح ماركسية القرن العشرين ، أن تطعم نفسها بفلسفة طالما افتقدتها أى التجريبية النقدية ، تلك الفلسفة المثالية ، الكنطية ـ الجديدة بصورة عائمة المنقحة ومن طرف العلماء ·

وقد أراد بعض البلشفيين من هذه المجموعة أن يضموا الى الماركسية أيضا حتى القيم الانسانية «الحقة» للدين ، وقد دعوا انفسهم لهذه الغاية «بناة الله» (٥) · ولكن لنترك هذا الامر ·

لقد كان فى نية جوركي اذن استضافة لينين ليطارح الفلسفة مجموعة من الفلاسفة الاوتزوفيين · وضع لينين شروطه : عزيزى اليكسى ماكسيموفيتش ، أود حقا أن آتى لاراك ، ولكنى أرفض كل نقاش فلسفى ·

---

٥ ـ بناة الله : تيار فلسفى دينى معاد للماركسية ، ظهر فى فترة ارتداد بعض مثقفى الحزب اثر فشل ثورة ١٩٠٥ ـ ١٩٠٧ · ابتغى «بناة الله» خلق دين جديد ، «اشتراكى» محاولين الجمع بين الماركسية والدين · انتسب غوركى فى فترة معينة الى هذه المجموعة · (المترجم) ·

حقا انه موقف تأكتيكى : كان المهم هو الوحدة السياسية بين البلشفيين المهاجرين ، كان يجب ألا نفرق بينهم بمناقشة فلسفية • ولكننا نستطيع فى هذا التكتيك أن نميز شيئا أكثر من التكتيك ، أى ما سادعوه «ممارسة» للفلسفة ، والوعى بما تعنيه ممارسة الفلسفة ، وبخلاصة الوعى بهذه الواقعة الخام ، الاولى ، التى تقسمها الفلسفة• اذا كان العلم يوحد ، واذا كان يوحد دون أن يفرق ، فان الفلسفة تفرق ، وهى لاتستطيع ان توحد الا وهى تفرق • هكذا اذن نفهم ضحكة لينين : ليس هناك حديث فلسفى ، ليس هناك نقاش فلسفى •

لا اريد اليوم الا التعليق على هذه الضحكة ، التى هى فى حد ذاتها أطروحة •

ولا أستطيع أن آمل أن هذه الاطروحة ستقودنا الى مكان ما •

تقودنى هذه الاطروحة الى حيث أطرح على نفسى السؤال الذى لا يمكن الا يطرح على : اذا لم يكن ثمة حديث فلسفى ممكن ، فبأى حديث يمكننى أن أقوم ؟ انه حقا حديث امام فلاسفة • ولكن كما ان الثياب ليست هى التى تصنع الراهب ، فليس المستمعون هم الذين يصنعون الحديث • لن يكون حديثى اذن حديثا فلسفيا • سيكون مع ذلك ، من أجل أسباب ضرورية تتعلق بمرحلة التاريخ النظرى التى نحن فيها حديثا فى الفلسفة • ولكن هذا الحديث فى الفلسفة لن يكون حديثا من الفلسفة ، بصورة تامة • سيكون ، أو بالاحرى يريد أن يكون حديثا عن الفلسفة • وهذا يعنى أن جمعيتكم قد استبقت آمالى باستدعائى لتقديم هذا الحديث •

ان ما اريد ان احاول قوله يمكن أن يستحق فعلا هذا العنوان اذا استطعت ـ كما أتمنى ذلك ـ أن أنقل اليكم شيئا ما عن الفلسفة، اى عناصر اولى من اجل فكرة عن نظرية عن الفلسفة • نظرية اى : شىء ما يجب ان يستبق العلم بشكل من الاشكال •

لذا أريد أن التمس منكم الأصاخة الى عنوانى : لينين و الفلسفة . لا فلسفة لينين ، بل لينين عن الفلسفة . أظن فعلا أن ما نحن مدينون به للينين ، والذى يظهر انه ليس مع ذلك بدون سابقة ، ولكنه بدون ثمن ، هو هذا الذى سنشرع به فى القاء نوع من الحديث يستبق ما يمكن ان يكون فى يوم من الايام نظرية غير فلسفية للفلسفة .

القسم الثانى

اذا كان هذا هو الفضل الاكبر للينين فى نظر حديثنا الحالى ، فيظهر اننا نستطيع ان نشرع فى تنظيم سريع لسؤال قديم معلق بين الفلسفة الجامعية ، بما فيها الفلسفة الجامعية الفرنسية ، ولينين . وبما اننى أنا أيضا جامعى ، وأدرس الفلسفة ، فانى أحد «المستمعين» الذين يوجه لينين اليهم «نداءه» .

عدا هنرى لوفيفر الذى أفرد للينين كتابا ممتازا ، فانالفلسفة الجامعية الفرنسية لم تجشم نفسها عناء الاهتمام برجل قاد أكبر ثورة سياسية فى التاريخ المعاصر ، والذى حلل طويلا وبوعى ، بالاضافة الى ذلك ، «المادية والتجريبية النقدية» مؤلفات مواطنينا نكتفى منهم بذكر : هنرى بوانكاريه ، هـ. دوهيم . و أ. رى .

لتسمح لنا أعمال أساتذتنا الافاضل التى سنتناساها ، ولكنى اعتقد انى أستطيع ان اميز فى نصف القرن المنصرم ، باستثناء مقالات الفلاسفة أو العلميين الشيوعيين ، الا بضع صفحات عن لينين : مقال سارتر فى «الازمنة الحديثة» سنة ١٩٤٦ (المادية والثورة) ومقال ميرلو بونتى فى (مغامرات الديالكتيك) وريكور مقال فى مجلة «الفكر» .

يتحدث ريكور فى هذا المقال باحترام عن «الدولة والثورة» ، لكن لايبدو لى انه قد عالج فلسفة لينين . ويقول سارتر بأن الفلسفة

المادية لانجلس وللينين فلسفة «غير قابلة للادراك» ، بمعنى Unding اى فكرة لايمكن أن تعضد اختبار الفكـرة في حـد ذاتها ، اذ انهـا ميتافيزيقا ، ذات نزعة طبيعية ، سابقة على النقد ، سابقة على الكنطية وسابقة على الهيجلية ، ولكنه يعترف لها بدور «أسطورة» أفلاطونية تساعد البروليتاريين على أن يصبحوا ثوريين • أما ميرلو بونتـي فيتخلص منها بمجرد كلمة : ان فلسفة لينين عبارة عن «وسيلة» •

لست هنا بصدد ادانة التقليد الفلسفي الفرنسـي منذ مائـة وخمسين عاما ، ولو كان ذلك مع اللياقة المطلوبة ، لان الصمت الذى غطت به الفلسفة الفرنسية هذا الماضي ، يعدل كل المحاكمة المفتوحة• لابد أن يكون هذا التقليد تقليدا تعسر معاضدته ، اذ لم يخاطر اى فيلسوف فرنسي معروف بكتابة تاريخها علنا •

لابد من بعض الشجاعة ليقول المرء ان الفلسفـة ، منـذ ميـن دو بيران وكوزان الى برغسون ، وبرونشفيـج ، مرورا برافيسـون وهاملان ولاشولييه ، لايمكن أن يشفع لها أمام تاريخها الا من طرف بعض مفكريها الكبار الذين تتشبث بهم ككونت ودوركهايم ، وأولئك الذين أودعتهم حيز النسيان ككورنو وكوتيرا • والا من طرف بعض ذوى الضمائـر من مؤرخـي الفلسفـة ، ومؤرخـي العلـوم ، والابستمولوجيين ، الذين عملوا فى جلد وصمت على تكوين أولئـك الذين تدين لهم فلسفتنا الفرنسية فى جزء منها ، بنهضتنا منذ ثلاثين سنة • وأستسمح الا أورد من هؤلاء الاخيريـن الذين يعرفهم كـل واحد ، الا الراحلين ، كافاييس وباشلار (علينا ان نضيف الـى هذه القائمة ابتداء من الان اسم جان هيبوليت) •

وبعد كل هذا فان هذه الفلسفة الجامعية الفرنسية ، التى ظلت منذ ١٥٠ سنة دينية حتى الاعماق ، روحانية ورجعية ، والتى ظلت فى أحسن الاحوال محافظة ثم ليبرالية و (شخصانية) بشكل متأخر ، هذه الفلسفة التي تجاهلت فى صلف هيجل وماركس وفرويد ، هذه الفلسفة الجامعية التى لم تشرع جديا فى مطالعة (كنط ثم هيجـل

وهوسيرل) ، وفي اكتشاف فريجه وراسل ، الا منذ بضع عشرات من السنين ، وأحيانا أقل ، لم تعر اهتماما لهذا البلشفي ، لهذا الثوري ، لهذا السياسي الذي هو لينين ·

بالاضافة الى الاسباب الطبقية الحاسمة التي كانت تنوء بثقلها على تقاليدها الفلسفية المحضة وبالاضافة الى الادانة التي وجهها مفكروها الاكثر تحررا ضد «الفكر الفلسفي القبل ـ نقدي ـ غير المستساغ للينين» ، فان الفلسفة الفرنسية التي ورثنا قد عاشت على اعتقاد بأنها لايمكن أن تتعلم شيئا فلسفيا ، لا من سياسي ولا من السياسة · ولئلا نأخذ الا مثالا واحدا ، فانه قد أخذ بعض الفلاسفة الجامعيين الفرنسيين في دراسة كبار منظري الفلسفة السياسية ، كماكيافيل وسبينوزا ، وهوبز وكروتيوس ولوك ، وأيضا روسو ، روسونا ·

وقد كان هؤلاء المؤلفون قبل ثلاثين سنة ، متروكين للادباء والحقوقيين ، كالباقي ·

ان الفلسفة الجامعية الفرنسية اذن لم تخطىء أبدا في رفضها الجذري لتعلم أي شيء من الساسة والسياسة ، وبالتالي من لينين ايضا ، فان كل ما يتعلق بالسياسة مميت للفلسفة لانها تحيا به ·

لهذا لايمكن أن نقول ، اذا كانت الفلسفة الفرنسية قد قرأت لينين يوما فانه قد كرمها بما تستحق لنصغ اليه في «المادية والتجريبية النقدية» حيث يورد ان ديتزجن ، هذا البروليتاري الالماني الذي قال عنه ماركس وانجلز بانه اكتشف «المادية الحديثة «وحده» ، وبعصامية ، لانه كان بروليتاريا مناضلا :

(كان أساتذة الفلسفة في نظر ديتزغن (ضد ماذوي دبلومات)، دوخت الشعب أحاديثهم عن «الخيرات السامية» مستخدمة في ذلك مثالية ثملى بالعطف (كما أن الشيطان هو نقيض الاله الخير ، فان المادي هو نقيض الجامعي الاكليركي) ·

ان النظرية المادية في المعرفة (سلاح شمولي ضد الايمان الديني) لا فقط ضد الدين العادى الاصيل ، المألوف الى الجميع ، دين القسس ، بل أيضا ضد الدين الرفيع ، الاستاذى ، دين المثاليين العموميين) • وقد اختار دييتزجن ، بمحض ارادته (الصدق الديني) بدل التباس الجامعيين «المفكرين الاحرار» : هناك فى الدين «نظام» على الاقل ، هناك أناس تأمون لايفصمون النظرية عن التطبيق • بالنسبة لسادة الاساتذة «ليست الفلسفة علما ، بل وسيلة للدفاع ضد الاشتراكية ـ الديمقراطية» •

«كل اولئك الذين يدعون فلاسفة ، أساتذة ومبرزين ، يسقطون بصورة أو بأخرى رغم حرية تفكيرهم فى حماة الآراء المسبقة ، وفى التصوف • انهم لايشتكلون بالنسبة للاشتراكية ـ الديمقراطية الا كتلة واحدة رجعية • من أجل اتباع الطريق القويم ، دون أن نترك الاراجيف الدينية والفلسفية تبلبلنا ، يجب أن ندرس الطريق الخير (طريق الطرق) الذى لايقود الى أى مكان ، وهو الفلسفة •

Denholzweg der holzweg (م• ن• ث ـ ص ٣١٤) (٦) •

ان هذا النص قاس ، ولكنه يعرف كيف يميز بين (المفكرين الاحرار) و (الناس التامين) ، حتى ولو كانوا دينيين ويمتلكون (نسقا) لا نظريا فقط بل ماثلا فى ممارستهم • ولكنه نص جلى : ليس من باب الصدفة انه ينتهى بهذه الكلمة العجيبة لديزغن ، التى يسردها لينين • اننا فى حاجة الى اتباع طريق قويم ، ومن أجل اتباع طريق قويم لابد من دراسة الفلسفة التى هى طريق الطرق الذى لا يقود الى أى مكان • ومعنى ذلك بعبارة أوضح : لايمكن ان يكون هناك طريق قويم نعنى : فى العلوم ، ولكن قبل ذلك فى السياسة • دون دراسة ، وراء ذلك ، دون نظرية عن الفلسفة كطريق لايقود الى أى مكان • ذاك هو ما يجعل لينين ، فى الدرجة الاخيرة ووراء

---

٦ ـ تبرز هذه الاستشهادات من ديتزغن ـ وقد اشار لينين الى أهمية العبارة الاساسية denholzweg der holzweg

الاسباب التى اوردنا ، مستثقلا لدى الفلسفة الجامعية ، ولئلا نؤلم احدا نقول ، مستثقلا لدى الاغلبية العظمى من الفلاسفة ، اذا لم يكن لدى كل الفلاسفة ، كانوا جامعيين أم لم يكونوا ·

ان لينين بالنسبة لنا جميعا (بما فيهم أنا) مستثقل ولا يطاق من الناحية الفلسفية أو انه كان كذلك بين الفينة والاخرى · مستثقل، لانه فى العمق ، وبالرغم عما قيل عن الطابع القبل ـ نقدى لفلسفته وعن المظهر المجمل لبعض مقولاته ، فان الفلاسفة يشعرون جيدا ويعرفون جيدا أن ليس هذا هو بيت القصيد ·

انهم يشعرون ويعرفون جيدا أن لينين يتهكم من اعتراضاتهم تهكما لاذعا · يتهكم منهم أولا لانه نبههم منذ امد طويل · ان لينين نفسه هو الذى يقول : لست فيلسوفا ، انى معد اعدادا سيئا فى هذا المجال (رسالة الى غوركى ، فى ١ فبراير ١٩٠٨) · ان لينين هو الذى يقول : أعرف أن صياغاتى وتعاريفى عائمة ، وغير مشذبة ·

اعرف أن الفلاسفة سيصمون المادية بأنها «ميتافيزيقا» · لكن لينين يضيف : ليس هذا هو بيت القصيد · انا لا اشتغل فقط بفلسفتهم ، بل لا أتعاطى الفلسفة مثلهم · ان طريقتهم فى «الاشتغال» بالفلسفة هي انفاق كنوز من الذكاء والحذق لاتؤدى الا الى اجترار فى الفلسفة · أما أنا فأعامل الفلسفة معاملة أخرى ، أنا أمارسها ، كما أراد ماركس ، طبقا لما هى · ذاك ما يجعلنى أعتقد انى «مادى جدلى» ·

ان كل هذا مدبج اما بجلاء و بين ثنايا السطور فى «المادية والتجريبية النقدية» · لذا فان لينين ، فيلسوفا ، لايطاق لدى أغلبية الفلاسفة ، الذين لايريدون أن يعرفوا ، اى الذين يعون ، دون أن يعترفوا بذلك ، ذاك هو بيت القصيد · ليس المقصود هو أن نعرف ما اذا كان ماركس وانجلس أو لينين فلاسفة حقيقيين ، وما اذا لم يكن ثمة مآخذ على موضوعاتهم الفلسفية من الناحية الشكلية ، وما اذا كانوا يتفوهون أولا بسخافات عن «الشيء فى ذاته» لكنط ، وما

اذا كانت ماديتهم سابقة على النقد ام لا ٠٠ الخ ٠ اذ أن كل هذه المسائل مطروحة داخل ممارسة معينة للفلسفة ٠ تتعلق المسالة الحقة على وجه التحديد بهذه الممارسة التقليدية ، التى تساءل عنها لينين مقترحا ممارسة أخرى للفلسفة ٠

هذه الممارسة الاخرى تحمل فى طياتها وعدا أو محاولة معرفة موضوعية لنمط كينونة الفلسفة ٠ معرفة بالفلسفة كطريق الطرق Holzmig der holzmeg لعل آخر شىء يمكن أن يتحمله الفلاسفة والفلسفة ، أى ما ليس مسموحا به ، هو بالضبط فكرة هذه المعرفة ٠ ما لايمكن أن تتحمله الفلسفة هو فكرة نظرية (اى فكرة معرفة علمية) للفلسفة ، قمينة بتغيير ممارستها التقليدية ٠ يمكن أن تكون هذه النظرية مميتة للفلسفة ، لانها تتعيش من نفيها ٠

لا يمكن للفلسفة الجامعية أن تبيح لينين (أيضا كماركس) لسببين هما سبب واحد بل نفس السبب ٠ فهى من جهة لاتستطيع أن تتحمل فكرة انها يمكن أن تتعلم شيئا من السياسة ومن رجل سياسة ومن جهة ثانية فهى لاتستطيع أن تتحمل فكرة أن الفلسفة يمكن أن تكون موضوع نظرية ، اى موضوع معرفة موضوعة ٠

وعلاوة على ذلك فان يكون رجل سياسة كلينين «ساذج» ، وعصامى فى الفلسفة ، رجل قد امتلك الجرأة على تقديم فكرة أن نظريته للفلسفة مسألة أساسية لممارسة فلسفية حقة واعية ومسؤولة، فان ذلك معناه مجاوزة الحدود ٠

ان الفلسفة الجامعية أو غيرها ، لايمكن ان تخطىء فى ذلك : اذا كانت تقاوم بضراوة كبيرة هذا اللقاء ذا المظهر العرضى حيث يقترح عليها مجرد رجل سياسة ما تبدأ به لتعرف ما هى الفلسفة ، فذلك لان هذا اللقاء يمس بالضبط نقطة الحساسية البالغة ، يمس نقطة ما ليس مسموحا به ، نقطة المكبوت ، التى ليست الفلسفة الا اجترارها وبالتحديد يمس النقطة التى ـ اذا ما ارادت الفلسفة أن

تعرف نفسها في النظرية ـ على الفلسفة أن تعترف فيها بأنها ليست الا سياسة مستثمرة بطريقة معينة ، سياسة مواصلة بطريقة معينة ، سياسة مجترة بطريقة معينة •

قد يكون لينين هو أول من قال بذلك • وقد لايستطيع أن يقوله الا لانه سياسي ، لا أي سياسي بل قائد بروليتاري • هذا ما يجعل لينين غير مسموح به في الاجترار الفلسفي ، وهو غير مسموح به (وأنا لا أطلق الكلام على عواهنه) بقدر ما ليس مسموحا بفرويد في الاجترار السيكلوجي •

نرى اذن أن ليس بين لينين والفلسفة القائمة فقط سوء تفاهم وازمات ظرفية ، ولا أيضا مشاعر الاستهجان لدى أساتذة الفلسفة الذين يعلن عنهم دونما تحفظ ابن معلم ، محام مغمور غدا قائدا ثوريا، انهم في جملتهم مثقفون بورجوازيون صغار يشتغلون في جهاز التربية البورجوازي كايديولوجيين يلقنون لجماهير الشبيبة الطلابية العقائد ـ (مهما تكن نقدية أو بعد ـ نقدية) ـ الايديولوجية للطبقات السائدة (٧) • بين لينين والفلسفة السائدة علاقة غير مستساغة بصفة خاصة : هذه العلاقة التي تمس بها الفلسفة السائدة في صميم مكبوتها ، أي السياسة •

القسم الثالث

بيد أنه لكي نعرف جيدا لم وصلت العلاقة بين لينين والفلسفة الى هذا الحد ، يتعين علينا أن نخطو قليلا الى الوراء • وقبل أن نتحدث عن لينين والفلسفة بصورة عامة ، علينا أن نحدد مكانة لينين في الفلسفة الماركسية ، وأن نثير بالتالي مسألة الفلسفة الماركسية •

ليس المقصود هنا أن احاول عرض تاريخ لها • ليس باستطاعتنا أن نقوم بذلك ، لسبب وجيه : يتعين علينا بالضبط أن نعرف ما هو

---

٧ ـ أنظر الملحق في آخر هذا النص •

هذا ال «س» الذى تطرح علينا مسالة اعداد تاريخ له ، وحتى اذا ما عرفناه ، فان علينا أن نعرف ما اذا كان له ام ليس له تاريخ ، أى ما اذا كان له أم ليس له الحق فى تاريخ ٠

بدل أن أحاول ، ولو من بعيد ، اعداد «تاريخ» للفلسفة الماركسية ، اريد ان ابرز ، من خلال نصوص ومؤلفات تتالت فى التاريخ ، وجود صعوبة اعراضية ٠

لقد أثارت هذه الصعوبة مناظرات شهيرة ، ما تزال مستمرة الى اليوم ٠ يمكن الاشارة الى وجودها من خلال العناوين الاكثر تداولا بين هذه المناظرات : ما هو جوهر الفلسفة الماركسية ؟ هل هى علم أم فلسفة ؟ هل الماركسية فى عمقها فلسفة ، «فلسفة الممارسة» ، ولكن ما القول فى الادعاءات العلمية التى أعلنها ماركس ؟ أم بالعكس، هل الماركسية فى عمقها علم ، هل المادية التاريخية علم للتاريخ ، ولكن ما القول فى فلسفتها ، أى المادية الجدلية ؟ ثم اذا قبلنا التمييز الكلاسيكى بين المادية التاريخية (علم) والمادية الجدلية (فلسفة) ٠ فكيف نستسيغ هذا التمييز : أبالفاظ تقليدية أم بألفاظ جديدة ؟ ثم ما هى العلاقات بين المادية والجدل فى المادية الجدلية ؟ وما الجدل : هل هو مجرد منهج ؟ أم هو الفلسفة برمتها ؟ ٠

ان هذه الصعوبة التى غذت العديد من المناقشات صعوبة اعراضية ٠ أريد أن أشير بذلك الى انها تشهد على واقع متلغز فى جانب منه ، جانب تعتبر الاسئلة الكلاسيكية التى ذكرت بها منذ هنيهة علاجا معينا له ، أى تأويلا معينا ٠ سنقول بصفة تجريدية ، ان الصياغات الكلاسيكية تعبر عن هذه الصعوبة بألفاظ هى عبارة عن أسئلة فلسفية ، وبالتالى داخل ما دعوناه بالاجترار الفلسفى ـ فى حين انه يجب ، بلا ريب ، أن نتصور هذه الصعوبة من خلال المسائل الفلسفية ،التى لايمكن لهذه الصعوبات أن توفيها حقها ، بألفاظ أخرى تماما ، أى بألفاظ : مشكلة ، أى بألفاظ معرفة موضوعية (واذن علمية) مما لاشك فيه انه بهذا الشرط وحده يمكن فهم الاختلاط الذى

جعلنا نتصور باكرا بالفاظ الاسئلة الفلسفيــة نصيب الماركسيــة النظرى الجوهرى فى الفلسفة ، أى الحاح مشكل معين يمكن أن ينتج جيدا تأثيرات فلسفية ، لكن بقدر ما ليست المسالة مسالة فلسفيــة فى نهاية المطاف ·

اذا استعملت عن قصد هذه الالفـاظ التى تتطلب تمييــزات (مشكلة علمية ومسالة فلسفية) فليس الغرض من ذلك ان ادين هؤلاء الذين وقعوا فى هذا الخلط ، اذ اننا نحن ايضا وقعنا فيه ، وانه امر لايمكن تجنبه ، الى حد ان الفلسفة الماركسية كانت وما تزال هى ذاتها واقعة فيه بفعل أسباب ضرورية ·

يكفى فى النهاية أن نلقى نظرة على مسرح ما ندعوه الفلسفــة الماركسية ، منذ الـ «أطروحات عن فويرباخ» ، لنلاحظ انه يقدم لنا منظرا متفردا · اذا سمح لى بوجوب ترك مؤلفات الشباب لماركس جانبا (أعلم انى أطلب بذلك تنازلا عسيرا عـلى البعض رغـم قــوة الاسباب المقدمة) ، وبقبول تصريح ماركس بأن الايديولوجيا الالمانية تشكل «تصفية حساب مع وعيه الفلسفى السابق» ، تشكل اذن قطيعة وردة فى تفكيره ، ـ واذا أردنا اعتبار ما حدث بين «الاطروحات عن فويرباخ» (العلامة الاولى على هذه الفصيلة ، سنة ١٨٤٥) وضد دهرنج لانجلس (١٨٧٧) فاننا سنصطدم بطول الفراغ الفلسفى ·

تعلن هذه الموضوعة الحادية عشر عن فويرباخ : «لقد اكتفــى الفلاسفة بتاويل العالم ، فى حين يتعين تحويلــه» · هـذه الجملــة البسيطة تبدو كما لو كانت تبشر بفلسفة جديدة ، فلسفة لم تعـد ابدا تاويلا بل تحويلا للعالم · وهذا ما جعل لابريولا ، ثم غرامشى ، بعد نصف قرن ونيف ، يقرآن الماركسية ويعرفانها كفلسفة جديــدة أساسا ، «فلسفة الممارسة» · ومع ذلك ، يجب ان يعاد الى الاذهــان ان هذه الجملة البنوية لم تنتج فى الحين أية فلسفة جديدة ، ولا اية رسالة فلسفية جديدة ، بل كانت بالعكس فاتحــة صمت فلسفــى طويل · وهذا الصمت لم ينقطع علينا الا بسبب ما اكتسى صبغــة

حدث غير منتظر : تدخل عاجل لانجلس، مقحما فيمعركة ايديولوجية ضد دهرنج ، ومجبرا على أن «يجاريه في طريقه الخاص» ليجابه النتائج السياسية لكتابات «فلسفية» لاستاذ رياضيات أعمى امتد تأثيره بخطورة الى الاشتراكية الالمانية ٠

هاهي اذن وضعية غريبة : أطروحة يبدو أنها تعلن عن ثورة في الفلسفة ، ثم يرين بعد ذلك صمت فلسفي لمدة ثلاثين سنة ، وأخيرا بعض الفصول المبتسرة من الجدال الفلسفي نشرها انجلس لاسباب سياسية وايديولوجية ، كمقدمة لخلاصة جيدة لآراء ماركس العلمية٠

هل يتعين أن نخلص من ذلك الى اننا ضحايا وهم فلسفي مرتبط بالماضي بقراءتنا للاطروحة الحادية عشر كاعلان عن ثورة فلسفية ؟ ٠ نعم و لا ٠ ولكن قبل أن نقول لا ، علينا ان نقول قبل ذلك بجد نعم : نعم نحن بصورة رئيسية ضحايا وهم٠ ان ماأعلن عنه في «الاطروحات عن فويرباخ هو ، في لغة فلسفية بالضرورة ، اقرار القطيعة مع كل فلسفة «تأويلية» ، أكثر مما هو فلسفة جديدة : علم جديد ، علم التاريخ ، الذي سيضع ماركس أسسه الاولى ، هذه الاسس التي ما تزال في منتهى الهشاشة في الايديولوجيا الالمانية ٠

ان الفراغ الفلسفي الذي تلا اعلان الاطروحة ١١ ، وهو اذن ملاء علمي ، انه ملاء عمل عسير ، طويل وشاق يعبد الطريق أمام علم لم يسبق له مثيل ، عمل سينذر له ماركس كل حياته لغاية المسودات النهائية لراس المال ، الذي لم يستطع ماركس انهاءه أبدا ٠ ان هذا الملاء العلمي الذي يعتبر السبب الاساسي الاول الذي لاتستطيع من اجله الاطروحة ١١ أن تسمح بقيام فلسفة بل ولا تستطيع حتى أن تعلن عن الالغاء الجذري لكل فلسفة موجودة ، من اجل ان تضع في المقام الاول مهمة التوليد النظري للمكتسب العلمي لماركس ٠

ان هذا الحذف الجذري للفلسفة واضح ، كما نعلم ، في الايديولوجيا الالمانية ٠ يقول ماركس في هذا الكتاب انه يجب أن

نتخلص من كل تهويم فلسفي ، وأن يأخذ المرء فى دراسة الواقع الايجابى ، وان يمزق حجب الفلسفة ويرى الواقع فى النهاية كما هو ·

تقيم الايديولوجيا الالمانية أساس هذا الحذف للفلسفة على أساس نظرية للفلسفة كهلوسة وتعميه أو كحلم، مصنوع مما سادعوه البقايا النهارية للتاريخ الواقعي للناس الماثلين ، بقايا نهارية مكسوة بوجود خيالى محض ، ينقلب فيه نظام الاشياء · ليست الفلسفة ، مثلها في ذلك كمثل الدين والاخلاق ، الا ايديولوجيا ليس لها تاريخ، فكل ما يبدو أنه يجرى داخلها يجرى فى الحقيقة خارجها فى التاريخ الوحيد الواقعى ، تاريخ الحياة المادية للناس · ان العلم هو الواقع عينه معروفا عن طريق الفعل الذى يعريه عن طريق بتحطيم الايديولوجيات التى تقنعه : وتوجد الفلسفة فى المقام الاول من هذه الايديولوجيات ·

لنقف قليلا عند هذه البرهة الدرامية كيما نحدد معناها · ان الثورة النظرية التى تبشر بها الاطروحة الحادى عشرة هى فى الواقع تأسيس علم جديد · ونعتقد أننا نستطيع ، مستخدمين مفهومها لباشلار ، أن نتصور الحدث الذى يدشن هذا العلم الجديد كـ «فصلة ابستمولوجية» (coupure epistémologique)

يؤسس ماركس علما جديدا ، أى يقيم نسقا من المفاهيم العلمية الجديدة هناك حيث لم يسد من قبل سوى ترتيب مدلولات ايديولوجية يؤسس ماركس علما للتاريخ ، هناك حيث لم توجد الا فلسفات للتاريخ · حينما نقول ان ماركس قد شيد نسقا نظريا من المفاهيم العلمية فى المجال الذى لم يسد فيه من قبل الا فلسفات للتاريخ فاننا نحيك مجازا ليس فى النهاية الا مجازا : اذ اننا نريد الاشارة الى أن ماركس قد أحل فى نفس المكان ، مكان التاريخ ، نظرية علمية محل نظريات ايديولوجية · وفى الواقع فقد تم تحويل هذا الميدان نفسه ·

ولكن تحت هذا التحفظ الرئيسي اقترح الاحتفاظ موقتا بالمجاز بل اعطائه صورة أكثر دقة ٠

اذا أدخلنا في اعتبارنا فعلا الكشوف الكبيرة للتاريخ الانساني، فسيبدو أننا نستطيع أن نرجع ما ندعوه العلوم ، كعدد من التكوينات الاقليمية ، الى ما سندعوه : القارات النظرية الكبرى ٠ نستطيع مع التراجع الذي قمنا به ، ودون أن نستشف مستقبلا لن «نطبخه في قدورنا» لا نحن ولا ماركس ، نستطيع أن نحيك مجازنا المعدل وأن نقول انه قبل ماركس ، لم تكن هناك الا قارتان وحيدتان قد انفتحتا للمعرفة العلمية بفصلات ابستمولوجية متصلة : قارة الرياضيات مع الاغريق (طاليس أو أولئك الذين تشير اليهم أسطورة هذا الاسم) وقارة الفيزياء (بواسطة غاليليه وأعقابه) ٠ ان علما كالكيمياء أسسته الفصلة الابستمولوجية للافوازييه ، عبارة عن علم اقليمي في القارة الفيزيائية : والجميع يعلم اليوم أنه ينتمي اليها : وعلم كالبيولوجيا الذي وضع نهاية ، منذ بضع عشرات السنوات فقط ، للمرحلة الاولى لفصلته الابستمولوجية التي ابتداها داروين ومندل ، وذلك باندماجه في الكيمياء الجزئية ، يدخل هو أيضا في القارة الفيزيائية ، والمنطق في صورته المعاصرة يدخل في القارة الرياضية ٠٠ الخ ٠ ويتراءى بالمقابل أن اكتشاف فرويد يفتتح قارة جديدة ، أخذنا الان في استكشافها ٠

اذا كان هذا المجاز صحيحا ، فانه يمكننا اذن أن نقدم المقترح التالي : لقد افتتح ماركس أمام المعرفة العلمية قارة جديدة وثالثة ، هي قارة التاريخ ، بواسطة فصلة ابستمولوجية قد دون حدها الاول، وهو بعد يترنح ، في الايديولوجيا الالمانية ، بعد أن كان قد أعلن عنه في الاطروحات عن فويرباخ ٠ ولربما أمكننا بالتراجع أن نعتبره ، بصدد هذا أو ذاك من تفاصيله ، كاستشراف الماضي ٠ وكيفما كان الامر فان هذه الفصلة تصبح مرئية في علاماتها الاولى ، ولكن هذه

العلامات انما تفتتح فقط بداية تاريخ بلا نهاية • هذه الفصلة ، ككل فصلة فصلة متواصلة تشاهد داخلها تبدلات معقدة •

وعمليا يمكن أن نلاحظ تجريبيا ، فى الكتابات المتتالية لماركس، عملية حصول هاته التبدلات التى تسم تصورات رئيسية وأداتها النظرية : فى «البيان» و «بؤس الفلسفة» سنة ١٨٤٧ ، وفى «المساهمة فى نقد الاقتصاد السياسى» لسنة ١٨٥٧ ، وفى «الاجور ، الاثمنة والارباح» لسنة ١٨٦٥ ، وفى الكتاب الاول من رأس المال لسنة ١٨٦٧ •• الخ • وستتلو ذلك تطورات وتبدلات أخرى فى مؤلفات لينين ، وبخاصة فى هذا المؤلف القيم فى السوسيولوجيا الاقتصادية، الذى تهامله السوسيولوجيون مع كل أسف ، والمدعو «تطور الرأسمالية فى روسيا» ، وفى كتاب : «الامبريالية» •• الخ •

اننا اليوم محسوبون مع كل أسف سواء قبلنا أن نعرف ذلك أم رفضنا ، على المجال النظرى الذى رسمته وافتتحته هذه الفصلة • وكما هو الامر بالنسبة للفصلات الاخرى التى افتتحت القارتين الاخريين المعروفتين ، فان هذه الفصلة ستدشن تاريخا لن تكون له من نهاية •

ها هو ذا اذن ما يجعلنا لانقرأ الاطروحة الحادى عشرة كاعلان عن فلسفة جديدة ، بل كاعلان ضرورى للقطيعة مع الفلسفة ، اعلان يفسح المجال بارزا لتأسيس علم جديد • هذا ما يجعل الصمت الفلسفى الطويل يمتد من الحذف الجذرى لكل فلسفة لغاية «الحدث» غير المتوقع الذى أنجب الفصول الفلسفية فى «ضد دهرنج» ، يمتد وتبقى الكلمة للعلم الجديد •

أكيد ان هذا العلم مادى ككل علم ، وهذا ما يجعل نظريته العامة تحمل اسم «المادية التاريخية» • ان المادية هى اذن وبكل بساطة الموقف الدقيق للعالم أمام واقع موضوعه ، الشىء الذى يسمح له بادراك «الطبيعة دونما اضافة خارجية» على حد تعبير انجلس •

فى هذه العبارة المستغربة قليلا : «المادية التاريخية» (لاننا لا نستخدم تعبير المادية الكيميائية اشارة الى الكيمياء) ، يسجل لفظ المادية من جهة قطيعة أولية مع مثالية فلسفات التاريخ ، وارساء دعائم نظرة علمية للتاريخ • كلمة مادية تاريخية تعنى اذن : علم التاريخ • اذا كان بالامكان أن يولد شيء ما مثل الفلسفة الماركسية ، فيبدو انه سينشأ من سير هذا العلم نفسه ، هذا العلم الذى هو أصيل تمام الاصالة ، ولكنه فى غرابته نفسها أخ للعلوم الموجودة ، بعد مدة طويلة تفصل دوما التعديل الفلسفى عن الثورة العلمية التى تثيره •

وفعلا لكي ننفذ قليلا الى الامام فى فهم أسباب هذا الصمت الفلسفى نجد أنفسنا مدفوعين الى أن نقدم هنا ، ودون أن نقوم سوى بتوضيح هذا الصمت بواسطة معطيات تجريبية ، اقتراحا بأطروحة عن العلاقات القائمة بين العلوم والفلسفة • يفتتح لينين كتابه «الدولة والثورة» بهذه الملاحظة التجريبية البسيطة : لم توجد الدولة دائما ، لا نلاحظ وجود الدولة الا فى المجتمعات الطبقية • وعلى نفس النمط نقول : لم توجد الفلسفة دوما ، لا نلاحظ وجود الفلسفة الا فى عالم يحتوى على ما ندعوه علما او علوما • العلم بالمعنى المحدد : فرع نظرى اى فكرى وبرهانى ، لا جملة نتائج تجريبية •

ها هى فى بضع كلمات ، التجليات التجريبية لهذه الاطروحة •

كيما تولد فلسفة او تبعث لابد أن تكون ثمة علوم • ولعل هذا ما جعل الفلسفة بالمعنى الدقيق لم تبدأ الا مع أفلاطون ، مدفوعة الى الوجود بتأثير الرياضيات الاغريقية ، كما تزعزعت أركانها مع ديكارت ، ودفعت الى ثورتها الحديثة من طرف فيزياء غاليلو ، وأعيد وضع أساس لها من طرف كنط ، تحت تأثير الاكتشاف النيوتونى ، كما أعيدت صياغتها على يد هوسرل تحت مهماز المباحث البديهية الاولى Axiomatique •• الخ •

اثير فقط هذه الموضوعة ، التى يتعين اختبارها ، لنلاحظ ، دوما من خلال النمط الاختبارى ، أن هيجل لم يكن مخطئا فى النهاية

حينما قال بأن الفلسفة تشرق في الامسية الساقطة : أي حينما يجوب العلم ، الذي ولد في الفجر ، مسافة يوم طويل من الزمن. انالفلسفة متأخرة دوما عن العلم ، الذي يخرجها الى الوجود في صورتها الاولى ، أي الى الانبعاث في ثوراتها ، بمسافة يوم طويل ، يوم يمكن أن يستمر سنوات ، عشرين سنة ، نصف قرن أو قرن .

يجب أن نعتقد أن صدمة الفصلات العلمية لاتستشعر للحظتها، بل لابد من بعض الوقت حتى تنعدل بها الفلسفة .

يجب أن نستخلص من ذلك ، بلا ريب ، أن المخاض الفلسفي مرتبط بسير المخاض العلمي . من الواضح أن المقولات الفلسفية الجديدة تترعرع خلال ممارسة العلم الجديد . ولكن في بعض الحالات (بالتحديد : أفلاطون ، ديكارت) نجد أن ما ندعوه فلسفة يستخدم أيضا كمختبر نظري يتم فيه تحقيق المقولات الجديدة التي هياتها تصورات العلم الجديد ، مثلا : ألم يتم ، في الفيزياء الديكارتية نفسها، انشاء المقولة الجديدة للعلية، هذه المقولة الضرورية للفيزياء الغاليلوية التي كانت ترتكز على العلة الارسطية ك «عقبة ابستمولوجية» ؟ اذا أضفنا الى ذلك أن الاحداث الفلسفية الكبرى التي نعرف (الفلسفة القديمة المرتبطة بأفلاطون ، والفلسفة الحديثة المرتبطة بديكارت) تخيلنا بجلاء الى الانفتاح المثير للقارتين العلميتين الكبيرتين ، الرياضيات الاغريقية والفيزياء الغليلوية ، فانه يمكننا أن نقرر (اذ أن كل ذلك يظل تجريبيا) بعض الاستنتاجات حول ما نعتزم امكان تسميته الفلسفة الماركسية . هناك ثلاث استخلاصات :

الاستخلاص الاول : اذا كان ماركس قد فتح حقا قارة جديدة للمعرفة العلمية ، فان مكتشفه العلمي يجب أن يحدث شيئا ما ، كأن يحدث تعديلا مهما في الفلسفة : ربما كانت الاطروحة الحادي عشرة سابقة لاوانها : فهي تعلن بوضوح عن حدث رئيسي في الفلسفة . يبدو أن الامر يمكن أن يكون كذلك .

الاستخلاص الثاني : لا يمكن أن توجد الفلسفة الا متأخرة عن التحريض العلمي • وستكون الفلسفة الماركسية متأخرة عن العلم الماركسي للتاريخ • وهذا ما يبدو انه قد حصل في هذه الحالة • تشهد على ذلك بيداء ثلاثين سنة بين «الاطروحات عن فويرباخ» و «ضد دهرنج» ، كما تشهد عليه أيضا بعض التمرغات الطويلة اللاحقة التي ما فتئ يعاني منها العديد منا •

الاستخلاص الثالث : ان لنا حظ العثور في عملية اعداد العلم الماركسي على عناصر نظرية أكثر تقدما مما نتصور لانشاء الفلسفة الماركسية ، مع التراجع الذي نمتلكه الان عن تأخرها • كان لينين يقول بأنه يجب البحث عن ديالكتيك ماركس في «رأس المال» ، وكان يقصد بذلك الفلسفة الماركسية نفسها • لابد وأن يكون هناك في «رأس المال» ما يمكن أن ننهي به أو تصنع به المقولات الفلسفية الجديدة : انها توجد في حالة عمل ، في «حالة تطبيق» • هذا ما يبدو اذن • يتعين أن نطالع «رأس المال» ونشرع في العمل •

ما عتم النهار طويلا ، ولكن بما انه لحسن حظنا قد تقدم حثيثا، فها هو المساء يكاد يسقط • ان الفلسفة الماركسية ستشرق •

اذا اعتبرنا هذه الاستنتاجات آفاقا ، فانها ، اذا جرؤت على القول ، ستقيم نوعا من النظام في همومنا وآمالنا ، وأيضا في بعض أفكارنا • نفهم اذن أن السبب الاخير الذي دفع ماركس الى عدم كتابة هذا الديالكتيك أو هذه الفلسفة التي طالما راودت أحلامه ، ليس ، مهما خيل اليه ، هو انه لم «يجد الوقت» لذلك • والان نفهم السبب الاخير الذي جعل انجلس ، وقد زج به من يوم لآخر في ضرورة «الادلاء برأيه في المسائل الفلسفية» على حد تعبيره يعجز عن اقناع فلاسفة محترفين، ليس هوالطابع الارتجالي لمساجلة ايديولوجية• نفهم اذن أن السبب الاخير للحدود الفلسفية لـ «المادية أو المذهب التجريبي النقدي» تتعلق فقط باحراجات النضال الايديولوجي •

يمكننا الان أن نقول ذلك • ان الوقت الذى لم يجده ماركس ، البرهة الفلسفية لوصول انجلس ، وقوانين النضال الايديولوجـي ، حيث كان على لينين أن يبتهج برد نفس السهم الى نحر العدو ، كـل هذه الامور اعذار طيبة ولكنها لاتشكل سببا معقولا •

ان السبب الاخير في ذلك هو أن الظروف لم تكن ناضجة ، وان المساء لما يسقط بعد ، وانه لم يكن بمستطاع لا ماركس نفسـه ولا انجلس ولا لينين ان يكتب بعد ذلكم المؤلف الفلسفي الـذى تفتقـده الماركسية • واذا كانوا قد جاءوا ، بصورة أو بأخرى ، بعد العلـم الذى تتوقف عليه الفلسفة ، فانهم مع ذلك يكونون قد اتوا باكـرا بالنسبة لفلسفة لا غنى عنها ، فلسفة لايمكن مع ذلك ان تولد الا من تاخر ضرورى •

سيتضح كل شيء انطلاقا من مفهوم هذا «التأخر» الضرورى ، بما فى ذلك عدم تفهم أولئك الذين ، مثل لوكاش الشاب وغرامشـي وآخرين لايحظون بمثل عبقرية هؤلاء ، كانوا قد أظهروا نفاذ صبـر أمام هذه الفلسفة البطيئة الميلاد ، لدرجة انهم أعلنوا أنها كانت قـد ولدت من منذ وقت طويل ، ابتداء من الاصول ، ابتداء من «الاطروحات عن فويرباخ» ، اذن قبل بدايات العلم الماركسى نفسه ـ هؤلاء الذين أعلنوا ببساطة أن كل علم «بنية فوقية» ، وان كل علم موجود هو اذن فى عمقه علم وضعى لانه علم بورجوازى ، و «العلم» الماركسى لايمكن أن يكون الا فلسفيا ، والماركسية فلسفة ، فلسفة لاحقة للهيجليـة او «فلسفة الممارسة» •

يمكن أن تتضح ايضا العديد من الصعوبات على ضوء مفهوم هذا «التاخر» الضرورى ، بما فى ذلك ما يتعلـق بالتاريـخ السياسـي للمنظمات الماركسية ، بعثراتها وازماتها • اذا كان صحيحا ، كما يعلم ذلك كل التقليد الماركسى ، ان أكبر حدث فى تاريخ صراع الطبقات ـ أى عمليا فى التاريخ الانسانى ـ هو وحدة النظريـة الماركسيـة والحركة العمالية ، فيمكن ان نفهم ان التوازن الداخلى يمكن ان يكون

مهددا بقصور فى النظرية ندعوه : انحرافات ، حتى ولو لم تكن جلية ، نفهم الاهمية السياسية لهذه المشاحنات النظرية الحامية ، القائمة فى الحركة الاشتراكية ، ثم الشيوعية ، حول ما أسماه لينين مجرد «لوينات» اذ يقول لى «ما العمل ؟» : «يمكن ان يتوقف مستقبل الحزب الاشتراكى الديمقراطى ، لمدة طويلة ، طويلة جدا فى السنوات على مجرد لوينة» •

يمكننا اذن ان نتصور ان النظرية الماركسية من حيث هى ، علم وفلسفة ، وكان على الفلسفة ان تتاخر عن العلم الذى انحسر تطوره فيها • هذا ما يجعلنا نعتبر أن هذه الانحرافات النظرية ، لم يكن عنها من محيد ، لا فقط بسبب مفعول صراع الطبقات حول وفى النظرية ، بل ايضا بسبب الفارق الباطن فى النظرية نفسها •

وبالفعل اذا عدنا الى ماضى الحركة العمالية الماركسية ، أمكننا ان نعين الانحرافات النظرية التى قادت الى ضروب الفشل التاريخية البروليتارلية الكبرى ، ونكتفى منها بذكر فشل : «الاممية الثانية» تدعى هذه الانحرافات : النزعة الاقتصادية ، النزعة التطورية ، النزعة الارادية ، النزعة الانسانية ، النزعة الامبريقية ، النزعة الدغمائية •• الخ • وهذه الانحرافات فى عمقها انحرافات فلسفية وقد أدانها القادة العماليون الكبار ، وفى مقدمتهم انجلس ولينين ، على انها انحرافات فلسفية •

ولكننا الان على وشك أن نفهم لماذا أغرقت هذه الانحرافات هؤلاء الذين أدانوها أنفسهم • هل لم يكن بالامكان تجنبها بحال من الاحوال ، بفعل التاخر الضرورى ذاته للفلسفة الماركسية ؟

لنسر الى النهاية • اذا كانت الامور كذلك ، وحتى الازمة العميقة التى تقسم الحركة الشيوعية العالمية اليوم ، فان الفلاسفة الماركسيين يمكن أن يكفهروا وترتعد فرائصهم أمام المهمة غير المامولة ، لفرط كونها مامولة ، هذه المهمة التى يكلهم التاريخ اياها

ويعهد لهم بها • اذا كان حقا تأخر الفلسفة الماركسية ، كما تشير الى ذلك دلائل عديدة ، يمكن جبر قسم منه اليوم ، فلم يتم فقط انارة الماضي بل ربما أمكن تحويل المستقبل أيضا •

فى هذا المستقبل المحول ، سيمكن انصاف كل أولئك الذين كان عليهم أن يعيشوا فى التناقض المترتب عن التعجل السياسى والتأخر الفلسفى • سيتم انصاف واحد من أكابر هؤلاء وهو لينين • هذه العدالة تعنى أن عمله الفلسفى سيصبح منتهيا • منتهيا بمعنى مكملا ومصححا • اننا مدينون بهذا الجميل وهذا التكريم للانسان الذى كان له حظ أن يولد فى اللحظة المناسبة من أجل السياسة ، لكن سوء طالع أن يولد باكرا بالنسبة للفلسفة • وبعد ذلك فمن منا يختار تاريخ ولادته ؟

القسم الرابع

نستطيع الان ، وقد نبهنا «تاريخ» النظرية الماركسية لاسباب تأخر الفلسفة الماركسية عن علم التاريخ ، أن نقصد لينين ، وندخل في مؤلفاته • ولكن «حلمنا» الفلسفى سيتبدد : اذ ليست الاشياء فى مثل بساطته •

هنا أستبق خلاصتى • لا، لم يولد لينين باكرا للفلسفة• لايولد المرء أبدا مبكرا بالنسبة للفلسفة • اذا كانت الفلسفة متاخرة ، واذا كان تأخرها هو ما يجعل منها فلسفة فكيف يجوز أن يكون المرء متأخرا عن تأخر ليس له تاريخ ؟ اذا كان ولابد أن نتحدث بأى ثمن عن تأخر : فنحن هم المتأخرون عن لينين • ليس تأخرنا الا الوجه الآخر للحقد • اذ أننا نسىء فلسفيا فهم العلاقات بين لينين والفلسفة • العلاقات بين لينين والفلسفة يمكن أن يعبر عنها تعبيرا جيدا فى الفلسفة ، داخل «اللعبة» التى تجعل من الفلسفة فلسفة ، ولكن هذه العلاقات ليست فلسفية ، لان هذه «اللعبة» ليست فلسفية •

الحلـو أحمـد

مجموعة «السقف»

بين المرحلية وعنف المواجهة

بقدر استيعاب الفنان لواقعه تتكون الاجنة التي ينتوى أن ينفثها من داخله الى عالم الدفء والحياة على شكل مواليد جديدة ، وبقدر ما تنصهر تجربته في الواقع يغنى رؤيتـه للكون والآخريـن ، محمـد ابراهيم بوعلو يملك فكرا قد تزوج الحياة فخلق بذلك تجربته فـي الفن ، استنادا الى اختياراته المجتمعية التي قد تكون قسرية مفروضة عليه • وفى هذا الاطار وجب الحكم على المجموعة القصصية ، فى الاطار التاريخى الذى وضعت فيه استجابة لمنبهات الواقع الذى يعتبر نقطة الثبات فى المجموعة بكاملها وفى كل عمل أصيـل • وأهمية وضـع المجموعة فى هذا الاطار تأتى من كونها تعتبر طليعـة توجيهية لانهـا نبهت جيلا من كتاب القصة المغربية الحديثة ليفتحوا أعينهم على واقعهم المسف ويجعلوا منه أرضية لاعمالهم • فضلا عن كونها تعتبر طليعـة استكشافية لانها أعارت الاهتمام لقطاع مجتمعي كان فى منطقة الظل قبل فترة من ظهورها •

واذا كانت هذه المجموعة قد اضطلعت بمسؤولية الريادة ، فانها تحمل محاسن ومساوىء اللبنات الاولى لكل أدب جديد • فقد كتبت فى فترة لم تختمر فيها التجربة الفنية فى قطاعنا الارضى ، ولم نكـن فيها قد استوعينا بعمق المقاييس النقدية ، فقد كتبت على الارجـح

في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات مما يدعونا الى التدقيق في النظر والتحفظ والاقتصاد بدل المجازفة باصدار حكم جاهز ٠

أهم ما تتميز به المجموعة هو الوفاء للطبقة ، محمد ابراهيم بوعلو أكثر الادباء اخلاصا لقطاعه المجتمعي في جميع ما يصدر ٠ وفي المجموعة تبدو هذه الخاصية بوضوح ويسهل وضع اليد عليها اثر أول اللمسات ، فنماذجه القصصية ، اما ضحايا ظلم ، أو طبقية بروليتاريا مناهضة ، وفي هذا الاهتمام الذي حصر فيه نفسه نجده يختلف عن غيره ممن عاصروه في الحقبة ، مما يدعو الى الاعتقاد بأن القصة المغربية الحديثة عموما لاتتصف بوحدة في الاختيار الطبقي والايديولوجي ، باعتبار أن الاختيار الاول يحدد الاختيار الثاني حتما، ومعنى ذلك أن الانتماء الطبقي لصنف مجتمعي معين هو الذي يحدد الرؤيا أو التصور الخاص بكل فنان ٠ هناك اختلاف في نظري من حيث «الاهتمامات» بين قصص بلوعلو وقصص غيره من المغاربة ٠

فالسقف طبقيا ان لم تكن مناقضة في الرؤية لـ (جيل الظمأ) ، فهي على الاقل مختلفة ، وذلك راجع بالدرجة الاولى الى الاختلاف الحاصل بين بوعلو بحكم انتماء أدبه الى البروليتاريا وتواجده مع من في الحضيض ٠ وبين محمد عزيز الحبابي بحكم انتماء أدبه الى البورجوازية الوطنية ، ومن هنا كان الاختلاف واضحا في الرؤى اذ أن الاهتمامات متباينة والرصيد الفكري لكل منهما مختلف من حيث النوعية والكيف ولا أقصد الكم ولا الغزارة لان وجودهما وحدهما لايخلق الفنان الاصيل ٠ وانطلاقا من هذا الاعتقاد فاني ألاحظ نوعا من التوازي الهندسي بين قصص مثل «وادي الدماء» لعبد المجيد بنجلون و «في الطفولة» ٠ و «دفنا الماضي» لعبد الكريم غلاب و «جيل الظمأ» لمحمد عزيز الحبابي ، هذه القصص التي تعبر باسم البورجوازية الوطنية وتكشف عن طبيعة الانتماء الطبقي التي يتصنف فيها هؤلاء الكتاب ، وبين السقف كمجموعة تعاني من عقدة الانسحاق والعاهات ، نجد نظيرا لها فيما كتبه ويكتبه كل من محمد برادة ،

ادريس الخورى ، محمد بيدى ، عبد الجبار السحيمى • وهى أكثر صدقا فى التعبير لانها تتحدث عن طبقة أكثر اتساعا فى الرقعة والقاعدة وأكثر تعرضا للظلم •

تقع المجموعة في ثلاثين قصة ، اختلفت من حيث المستوى الفنى ولكنها جميعا تعبر عن اهتمامات واحدة تتلخص فى :

١ ـ ظاهرة الانهيار والضياع فى زحمة الحياة للنماذج المستلبة حياتيا من الحرية ، ومجتمعيا من العيش ، هذا الانهيار الذى قد يكون مغلقا أحيانا لايرقى اليه بصيص من الامل ، وقد يكون أحيانا أخرى مفتوحا وثوريا ، يحتضن كثيرا من نبوءات الفنان •

٢ ـ الشعور بالفروق الطبقية ، هذه الفروق التى تجعل من بعض النماذج البشرية كتلا لحمية هامدة قسرا • بينما غيرها يعيش البذخ •

٣ ـ بعض المواقف الفكرية التى تتوزع المنهارين والمتناقضين طبقيا فى الصراع •

١ ـ ظاهرة الانهيار أو الضياع فى مجموعة من القصص تعتمد الالتقاطة المفردة لنموذج مسحوق ، أو لجموع محتشدة فى قصص متفرقة ، هذه النماذج التى اختلط فيها اللغو بالاصوات ، بين مستنكر للقوة كنوع من الضغط على بعض من يشافه بالحق حيث يضرب عليه حصار ، بأن يرمى به فى السراديب كقطة خرساء، ولكنه سرعان ما يشعر بأن الحجر أحق منه بالتقدير ، لانه ينفذ بالفعل ، وينتقم بالفعل (الرجل ـ الصخرة ـ الحجر) ، وبين رافض للاستغلال وامتصاص ذوى النيات الحسنة ، حانق على الانتهازية كسلوك فى الحياة ، (ساعة الرفض) ، يقول : «اما أنا فرجل مذنب حتى الرأس ، لاننى لم أقف فى وجه الزيف (١) » • بين مستغرق بشكل حلمى فى اليقظة وصلت أمانيه الى حد الهوس لانه فقط يتمنى لو يلبس حذاء جديدا • وهى هواجس تحتضن كثيرا من الصدق والامانة فى النقل ،

تذكر ببطل المعطف لكوكول الذى تضخمت أمانيه بنفس الشكل ، الا أنها لاتنتهى نفس النهاية المحتدة، بل تنتهى نهاية أسيفة عندما يمسك الدائن بخناق البطل فتتقلص أحلامه ولكنه يؤثر مع ذلك متابعة الحلم ويقرر النظر الى الحذاء ولو من بعيد ، بدل التخلى عن الامانـى التـى تتلخص ببساطة فى قوله : «ما أجمل أن يكون للمرء حذاء جميل (٢) » (الحذاء الجديد) ، وبين انتكاسة الانسان الباحث عن عمل فى قطاعه الرافض (رفيق) ، نماذج تعانى من الامـراض ، تعيش بين ضائـع استحال الى متسول عندما اكتسحته الفيضانات ، ولكنه مـع ذلـك يستطيع أن يجود بما تبقى فى وفاضه ، وفى ذلك يفضل الآخرين على نفسه متجاوزا فكرة الاقتسام (طيور البحر) ، وهى من أجود القصص ومن أكثرها اقناعا بالموقف الانسانى ، وبين خائف من الغربـة فـى (الطبال) الذى يقتنع بضرورة البحث عمن يعيره الكـف الاخـرى للتصفيق ، وفى ذلك ارهاص بوجوب التخلى عن الاستكانة الى البحث والتنظيم ، بين مذقع يندفع الى السرقة كسلوك يفضل التسـول ، وان كان يدفع الى القاء القبض الى السجـن أو الهـرب . احتمـالان ممكنان ، وقد يتم بالهرب وسيلة لانقاذ الكرامة كما فى «النار المحرقة» التى لامعنى لعنوانها · وبين واع معرض للاختطاف كأسلـوب مـن أساليب القمع ، حيث يصبح تحت تأثير التعذيب فاقدا وجهه يعيش أزمة التنكر لنفسه فى (رجل فقد وجهه) ·

هذه بعض الاهتمامات التى تمسك بخناق صاحب المجموعـة . فيعبر عنها فى محاولة التقاطه للنماذج المفردة ، وتناظرها أو تسيـر معها فى نفس النسق قصص أخرى ، كأن يصف محتالا للقضاء على عملاقى الفقر والطالة ، ولكن زوجته تضيق به ذرعا ، فتمزق أحلامـه عندما تمزق أرقامه فى قصة (وان ــ تو ــ ترى ــ فور ــ فاى) ، أو أن يعرى واقعا يجعل من مقاوم الامس منبوذ اليوم ، تختلف فيه الآراء بين الاشفاق والسخرية (الرجال) ، ولا تقف عملية التعرية عند هـذا الحد ، بل قد تتسع لتشمل (الخطأ) الواسع الذى يجثم كالقـدر ،

خطأ الرقم فى البداية الذى يجعل من الانسان آلة ، ولكنه يتصاعد بمتوالية هندسية ليشمل جميع الهياكل ، خطأ التخلى عن المبادىء خطأ الموظف الصغير والمسحوقين الذين يشيرون بأصابع الاتهام الى من هم فى نفس موقفهم من الذلة والظلم على اعتبار أنهم سبب الخذلان، خطأ الحكم على انسان مكتمل البنية بأنه يملك فى «كان يملك» عن طريق المغالطة ، خطأ البنية الاسروية الضيقة التى تعيش تطلعات بورجوازية ولو على حساب استغلال الآخرين ، مما يثير الحنق والاشفاق معا ، والخطأ الاكبر يتخلص فى سوء تقديرنا للاشياء •

٢ ـ الشعور بالفروق الطبقية يعتمد بوعلو فى ابرازه على الصراع الطبقى أو على نوع من الجدل الدرامى بين «الاطروحة» و «النقيض» على طريقة «الانظومة الهيجيلية» ، هذه العملية التى تتم أحيانا بشكل تركيبى ، وأحيانا يقع فيها عطب اذ تكتفى بالمجابهة الصريحة بين طبقتين متناقضتين ، يحتدم بينهما الصراع فى تنازع البقاء ، هذا فى طريقته لرسم اللوحة اذ يعتمد نوعا من التضاد ، ولكن فى طريقة الصياغة يعتمد شكلا آخر ، فهو اما معمق للتناقض الطبقى بين عقليتين تتوازيان بشكل متقابل هندسيا (صياد) عقلية الصياد تقابلها عقلية الامريكى ، عقلية تفكر بشكل خيالى ولو بالنسبة الى نقيضتها على الاقل اذ تعين مأساة الضياع ، تفقد هويتها جاهلة معالم حدودها المكانية التى لا يزيد عن قوله (هنا ـ البحر ـ المغرب) مما يجعلك تستشعر القرف ، واما مستوضح الفارق الطبقى بين بنيتين مجتمعتين ، بنية مستغلة وأخرى مستغلة ، يبرز القصاص بشكل حركى تناقضهما من خلال الفكرة التى تتضمنها القصة ، والتى تتلخص فى أن الكلب فى كثير من الاحيان يكون أحسن حالا من الانسان الفاقد لكيانه العديم الحظ • وهو أحيانا اما أن يدين المستغل لبكمة فى (الابكم) الذى هو مأساته ومأساة قطاعه ، ولكنه يزيل عنه عاهته عنداشتداد الازمة فيصرخ ممايجعل الناس يصيحون: ان الابكم أصبح يتكلم (٣) احتجاجا على الاستغلال ، وفى القصة كثير

من الايمان الثورى ، واما أن يرفض المساومـة فى «السقف» رمـزا للواقع المزرى ، تتم بعملية الهدم التى هى نوع من الانعتاق ونفـض الغبار لاسترداد الشرف ، عملية الهـدم تأتى رد فعـل لليأس مـن الاصلاح والترقيع اللذين لايزيدان الحالة الا تأزما ، السقف يحجـب الهواء والحرية اذن فليهدم وليستعض عنه بالضوء والامل ، وفي هذه الحال يكون الفنان قد تجاوز مفهوم الحرية السارتيرى الذى يومـن بأن نقول «لا» للذى لانريده ، الى مرحلة أكثر ايجابية فى الجوهر ، يتم فيها تفجير التناقض وتصبح الحرية لديه «تنظيما واعيا من جانب الانسان للحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية (٤) » كما يـرى روجى غارودى ٠

هذه بعض وسائله لاستيضاح الفروق الطبقية ، أحيانا يؤثـر بنوع من الحيلة أن يبرز آمال القطاع الرافض ومدى ارضاء النقيض لهذه الآمال فـ (البناية الجديدة) أسلوب من أساليب عجز النقيض الذى ارتأى بدل ترضية الجماهير العريضة وبدل القضاء على الثالوث الرهيب (الفقر ـ الجوع ـ المرض) فانه يسلك سبيل القمع الذى هو «الشر» المستطير ٠ (البغل) موقف يعتمد الجدل ونوعا من الدرامـا التى تكمن فى خوف العامل على عمله كطبقة وغطرسـة رب العمـل كنقيض ٠ وفى نفس السياق (المسخوط) التى تطرح قضية الاخلاص فى العمل لصالح من يتركون المخلصيـن خارج دائـرة الرحمـة ٠ بل قد يخلق رد فعل كأن يستلذ المستغل بآلام الآخرين على نحـو من السادية ، ومع ذلك تبقى العملية فى هذا الثقل دون أن تحدث رجة ٠ وبينما يستكنه عالما مغلقا هنا نجده فى (الجيلالى الحوات) يرفض على لسان البطل أن يكون ذيلا تحت رحمة غيره فيمـزق وثيقة التبعيـة ويختار أن يمتهن زبالا باعتبار أنها أهون محملا من الاولى حينما كان لسان البطل أن يكون ذيلا تحت رحمة غيره فيمـزق وثيقة التبعيـة رؤية منتكسة تنبه الى أن المنسحق دائما اما ذيل الاكوام الرأسماليين أو لاكوام الازبال وكلها سواء ٠ (المعلم والطفـل) تذهب الى نفـس

الهدف فتقدم صورتين متناقضتين تحدثان نشازا ، صورة الانتهازى الذى يقتنع باستغلاله للآخرين وصورة الضائع المضطهد ، صورة لبائع ضميره في المزاد العلني وصورة مناقضة لنموذج فقد ظله • تناقض واضح فى رقعة فنية واحدة تستقطب ماهيتها من الواقع المتنافر فى الصورة ، المختلف فى القيم ، أمام الخلط الذى لحق الدنيا فظهر أثرياء الحرب ومدعى الصفقات التجارية •

٣ ـ هذه العينات ليست معملية ميكانيكية خاضعة للتصور الخاص بالاديب فى المجموعة بل هى استغلال لمعطيات الواقع واستبصار لحياة مزرية تنداح فى فكر القصاص وواقعه ، وهى بالتالى نوع من المعاناة الداخلية التى تخصب لدا الاديب اهتماما خاصا بالمواقف الفكرية يتوزعها المنهارون أو المتناقضون طبقيا فى زحمة الصراع • فـ (الدقات الثلاث) نوع من : «التغلب على المجهول الذى يجثم على قريتنا رمزا للاستكانة واللاحياة (٥) » • وعملية الصعود الى الجبال مغامرة للشرف واستشراق للعلو الذى يشرئب اليه العنق ولكن لتحقيق الافضل بدل الخنوع والعيش بين الحفر • وفى محاولة الاديب لاخضاع الصعود لنوع من التوارث السلالى ـ عندما نجد للابن رغبة فى معاودة الكرة رغم ضياع أبيه ـ دليل على الجرأة والايمان الثورى •• و (صيد الفجر) استعجال للوصول ورؤيا منتكسة مفروضة أحبطت كل آمال البطل ، مما جعله يرقب الفجر تجف مواعيده ، فهو استعجل الفجر ليتم له الاصطياد وايقاظ النيام الا أن تباشيره الاولى تبدو بعيدة • (رجل يعدو) تعبير حاسم عن موقف الاديب من جيلين : جيل المرض والهزيمة ، وجيل الانتصار والتسابق تكشف عنه آخر كلمات القصة ، فالجيل المنتصر ابن شرعى لجيل المرض (العرج) و (على المشنقة) تطرح قضية المساهمة فى عمل عن غير اقتناع ، فالحارس الفرنسى يشعر بوخز الضمير والسخرية من نفسه لانه يحرس مقاوما جزائريا مشنوقا يعمل لاسترجاع حريته ، وبالتالى فهو يشعر بدوره أنه على المشنقة ، وشبيه بهذا الموقف فى (الورد)

وضع الدجالين الذين يدرأون الخطر عن طريق التعاويذ والخرافات دليل عدم الاقتناع ، فازالة الكابوس واذابة جليد الظلم والخوف يكونان عن طريق المواجهة المادية الصريحة التي تتنكب الدعاوى الفارغة الى العنف والصراخ ، الذى لايثير الالم بشكل ظالم، فالانسان يربأ بنفسه عن الاعتداء على الاخرين (صديق) ولو كانوا معتدين عليه – فى نظر بوعلو – وهو موقف غير مقنع لان المسالمة لم تعد تعني الانتصار للقيم ، بقدر ما تعني التوجس ، والتسامح المسيحي كقيمة انسانية أصبح من قبيل المثاليات الخيالية وليس واقعا على الاطلاق، اذ قد يسلم الى انتحارية رخيصة تستبدل بميكنيزمات الدفاع عن الوجود وحفظ الكيان واقعا مهزوما • وبينما (الالف فرنك) تطرح قضية الحزبية الضيقة عندما يتقاعس «الثورى» لانه لم يكسب بعض ما واعده به غيره ، فانها تنتصر للامثل وهو التشبث بالمبدأ ويمكن اعتبارها دليلا على الانتكاسة الثورية ، نجد أيضا (عودة الغريب) تطرح قضية أعمق عندما يشعر البطل بوجوب الرحيل عن بلاده الغريبة ، الا أن هذا الرحيل يكتسي بعدا خاصا يقربه الى المضمون الشعرى ، فقوله «أيها الرفاق عجلوا •• عجلوا (٦) » • وعودة الى تحقيق الوصول ليتم العثور على الاستقرار ، وما لم يحصل الانسان عليه فسيظل جواب آفاق يكتسح كل ميدان ويشق جدار الصمت للتعجيل بالمسيرة ولتحقيق الافضل • وتأتي (مؤامرة) لتكشف جانبا من الغربة التى تطوح بالانسان الواعى حيث يشعر أن الاخرين وبال عليه ، ولكنهم مع ذلك من نفس جلدته ، الا أنه يعزى نفسه بأن الاخرين لابد أن يشعروا بنفس الغربة اذا تعرضوا لنفس المؤامرة التى تمنعهم من التعاطف معه ، وتتركه منبوذا يكتوى بحمى الغربة فى وقت هو أحوج ما يكون فيه الى أن يؤخذ بيده •

تلك مضامين السقف كمجموعة قصصية مساهمة منها فى هز القارىء بعنف وصلافة لتحريك الوعى فيه • وهى بالتالى تطرح قضايا أساسية فى مجتمع متخلف ، فما هى القضايا النقدية المطروحة على المستوى الفنى فى هذه المجموعة ؟

الواضح من خلال المضامين أن بوعلو يتناول قضاياه دون لف ودون تمويه ، مما يعتقد معه أن بوعلو كان يكتب أدبا جماهيريا خدم الوعي المغربي وبلوره في فترة معينة ، وكان يهدف في البدء الى الاهتمام بالمضمون أساسا ، ومن هنا كان عنيفا في مواجهته لهذه المضامين حتى ليضحي أحيانا بالناحية الفنية في سبيل وضوح فكري مما جعل بعض فقراته أحيانا تصل الى حد المقالة السياسية (خطأ) ص ٢٠٨ (ألف فرنك) ص ١٨٧ في التعريب والتعليم والفلاحة والسياسة • وهذا يدعونا الى اعادة النظر في مفهوم الواقعية ومدى استيعاب المجموعة لهذا المفهوم ، ومدى اجحافها في التعبير عنه • فالواقعية في الفن لاتعني الرصد الصارخ للواقع ، ولكنها تعني ابداعا لايتناقض مع الواقع ولا يخلو من خلق وابتكار • وعلى هذا فاغراق العمل في الفوتوغرافية الجامدة لايخلو من تعسف • ومن هنا وجب الحكم بأن الواقعية التي يطرحها بوعلو في مجموعته كطريقة فنية لعرض القضايا هي واقعية مضغوطة محتقنة معتصرة من «صميم» الواقع ، وهي عملية وان كان فيها ما فيها من الوفاء للواقع فانها تسقط المجموعة فنيا • فبوعلو يخط تجاربه على شكل لمسات عصبية تخضع لقانون تقني عماده العقل والمنطق ، بوعلو لايصالح الحلم والشفافية التي تنأى عن الواقع قليلا أو ترتفع عنه ، بل يحتضن الشحنات الشبيهة بالقذائف ، لهذا كانت المجموعة تعكس واقعا أرضيا غاية في الصدق ، وتعرض مطلقا عن أن تحط في عالم سديمي أو ميتافيزيقي يراد منه خلط الواقع بالحلم • فواقعية بوعلو تنحصر في اقناعنا بأن «الواقع مزر» وهو هنا يفتح أعيننا على واقعنا بالحاح ، مما يجعل أدبه خاليا من المتعة الروحية• اذ أن قصره النظر على الواقع الحي بالوسائل الاستعراضية دون غيرها يجعله يسقط في الصخب والغوغائية •

وأذهب الى الاعتقاد بأن هناك تخبطا في المجموعة من حيث فهم حدود المصطلح الواقعي كتيار أدبي • فالواقعية الضيقة التي تلتزم حدود الواقع فقط كأحداث تجري تسبب انحسارا في المد الابداعي

وجفافا فى التجربة • وتوقع بوعلو بالتالى فى الضعف من ناحيـــة المستوى بين مدرسية فى (صياد) وموعظية فى (الرجال) بين ابتذال فى (ألف فرنك) وتسجيلية تقريرية تصــل الى مستــوى الصـــراخ السوداوى فى (رفيق) و (صيد الفجر) وان كانت هذه الاخيرة لاتعتمد التقرير ، وفضلا عن ذلك فان هذه الواقعية توقع بوعلو فــى مأســاة الاجترار •

وعلى هذا فالمجموعة اذا عرضت على المقاييس النقدية الحديثــة جدا ـ وأعتقد أن ذلك سيكون من باب التعسف والخطأ ـ رغم ما فيها من صدق والتزام ، ستنم عن ضآلة فى القيمة ، ذلك لان المقاييــس النقدية آخذة بسرعة صاروخية فى تجاوز المراحل التى كان يعتد بها منذ وقت قصير • على أن الواقعية الجديــدة مثلا تجـاوزت مرحلـة التقرير والمباشرة والتسجيل الفوتوغرافى الى اكتشاف آفاق جديدة منها على سبيل المثال لا الحصر :

١ ـ الانطلاق من الواقع للحلم واختلاطهما •

٢ ـ استخدام تداعى المعانى لاجتذاب القارىء واستصحابـه فى عملية الابداع قصد المشاركة الوجدانية والفعلية •

٣ ـ انتهاج البناء الصورى الغالب فى الشعر الحديث •

٤ ـ استكشاف مستويات الادراك •

٥ ـ التركيـــز •

٦ ـ الايحــاء •

٧ ـ اللقطة السينمائية الوامضة •

هذه بعض وسائط الصياغة الحديثة فى القصة القصيرة التى لايمكن اعتبارها بحال خروجا عن التقنية الواقعية ، ذلك لان هــذه التقنية توجد فى غمرتها وهى على كل حال لا نجد لها رائحــة فــى

المجموعة • وليس ذلك مطلوبا لان المقاييس متغيرة ولان بوعلو قد كتب في مرحلة سابقة • فما هي وسائط الصياغة التي استعملها بوعلو في مجموعته ؟

أ ـ عمد الى التحليل كطبيعة لاستكشاف عمق أبطاله ، وقد كان ذلك جيدا •

ب ـ عمد مرة أخرى الى كشف المواقف فقط لنماذجه وهو عمل لا يخلو من ابتكار ونظرة ذكية نافذة •

ج ـ اعتمد على المونولوج الداخلي لابطاله خاصة في (النار المحرقة) و (رجل فقد وجهه) و (كان يملك) ولكنه لم يترك نماذجه تتصرف دائما بتلقائية وانسياب خضوعا لابداعاتهم الخاصة بل كان ينتصر لابداعاته هو •

د ـ عمد أحيانا الى التقنية المدرسية المبتذلة كقوله مثلا ص ١٣ (ولم يمض وقت طويل حتى انسجم الامريكي مع الصياد) ، ويقول ص ١٣٤ (ومرت برهة وهو على هذه الحال) •

هـ ـ عمد الى خلق صياغة جديدة تعتمد الرمز ، فكان يخوض في استغلال قضايا حياتية استغلالا رمزيا في (الرفاق الثلاث) (الابكم) (الطبال) (السقف) (البناية الجديدة) ، ولكن رمزيته في الغالب تعتمد البساطة خوفا من «التغريب» وتعتمد الطرافة كأداة ، الا أنها لاتفتقد الى شمولية في النظرة •

و ـ اعتمد أحيانا على الجملة القصيرة في (المسخوط) و (طيور البحر) ، وهي جملة كهزلية في الغالب الا أنها تخطط مصير المضمون الصارخ وتجعل القارىء يعتقد أن المجموعة تنويعات على وتر واحد • ولو أن هذه التنويعات محدودة النبرة لاتربو على القول بأن الواقع مزور وأن هناك أزمة • ومن هنا يصدق النقد الدوكماتيكي على قصص بوعلو اذ لاتخضع لايحاءات متعددة خصبة • فالمضامين

واضحة تتميز فيها نغمات الاحتجاج لصالح المضطهدين والصراخ فى وجه المستغل مستنزف الدم الذى لايعرف أحسن من الصلف والالتذاذ بتعذيب الاخرين في سادية سافرة ٠

ز ـ خلص أسلوبه من كافة الزخارف وتركه ينساب برزانة وثبات تتطلبهما رؤيته الواقعية جدا فساعده ذلك على استيعاب الواقع الذى ملأ عليه السمع والبصر فلم يعد يستطيع الفكاك من أسره مما جعله لايستطيع أن ينغمس بسهولة في الذات أو يسترسل بشكل نرجسى فى لعق الجروح أو مغازلة التطويحات الخيالية أو معالجة التضخم الجنسى الذى تنأى المجموعة عن الاهتمام به ٠

وهذه الظاهرة أكسبته مرونة النظر الى المجتمع بشكل تكاملى فى (السقف) كنموذج يحتوى القضايا المصيرية التى لاتهم قطاعا مجتمعيا دون غيره ولكنها ضرورة التغيير على مستوى أعمق من الفردية والخصوصية ٠ هذه المرونة التى أمدته بمضمون ثورى دائما كما أمدته بانطلاق وجرأة ، وتركته ينطلق من المبدأ النضالى أساسا ومن الوضوح الايديولوجى مما يدعوه الى استشراف عالم يتمناه أحيانا ، والى انتكاسات منغلقة أحيانا أخرى ٠

والواقع أن الظرف يفرض رؤية سوداوية ، أما التنبؤات المغرقة فى التفاؤل فهى ساذجة فى الغالب ، فالواقع يطرح بشكل تبدو أبوابه موصدة كحصن منغلق على نفسه لامجال فيه للتفاؤل الطوباوى فليس المهم القول بأن هذا أدب متفائل وهذا أدب متشائم ، ولكن المهم هو مدى «تصور الحياة فى رؤية القصاص الفنية (٧) » ٠

واستنادا الى هذا تكون رؤية بوعلو صادقة الى أبعد الحدود لانه استوعب فى تصوره الخيالى ، وعبر بصدق وبأمانة عن آمال وآلام الطبقة التى لم تستطع الخروج من القمقم الرمادى ، ولا الانعتاق من القتامة وهذا ما يشفع له كل هنأته الصغيرة ويجعل مجموعة بوعلو فى نفس الوقت مسحا اجتماعيا صارما ، ومساهمة جادة لخلق أدب

مناضل، ويترك التيار الذى استكشفه يمتد الى الان وهو أكثر ازدهارا وخصبا لمواكبة الزحف الفنى الذى يمسك بتلابيب القصة القصيـرة الحديثة ·

المراجـع :

١ ـ ساعة الرفض ص ٢٥ (السقف) محمد ابراهيم بوعلو ·

٢ ـ الحذاء الجديد ص ٢٣ (السقف) محمد ابراهيم بوعلو ·

٣ ـ الابكـم ·

٠ ـ الابكـم ·

٤ ـ حوار مع اليسار الاوربى ص ١٩٣ حوار للمؤلف امير اسكندر مع روجى غارودى ·

٥ ـ الدقات الثلاث (السقف) بوعلو ·

٦ ـ عودة الغريب ص ١٩٣ (السقف) بوعلو ·

٧ ـ مجلة الهلال ص ١٣٢ ع· خ· بالقصة القصيرة غشت ١٩٧٠ ـ الجديد فى القصة المصرية لشوقى خميس ·

الحلو احمد ـ القصر الكبير ـ أكتوبر ١٩٧٠

محمد العياشي

قصة وسيناريو وحوار

(أقصوصة)

- ١ -

ـ كيف ٠٠؟

ـ لماذا ٠٠؟

وبدا السؤال غريبا (ولست أدرى متى بدأت غرابتـــه) وبـــدا الجواب معقولا أكثر من أى وقت آخـــر ٠٠ وبقدر ما كان الســؤال سريعا عفويا ، كان الجواب أسرع وأعنف حتـــى لكأن الزمن صـــار يختصر نفسه ، ويختصر الكلمات ذاتها ٠٠

ولماذا لا ؟ هي العادة انتهت ! اعادة الاجابـــة بالكلمـــات على الكلمات مجانا ٠٠ المجانية تجعل الحقيقة مشدودة وراء الكلمات ٠٠ وتجعل الصمت ينتفخ أمام الكلمات ٠٠ فلتسقط المجانية ٠٠ وليسقط المسخ من أعماق كل سؤال واجابة ٠٠

ان من يسألنى كيف يمسخنى مسخا صوفيا ويحيل الواقع الى كلمات بلا معنى ٠٠ كيف هي اللامعنى ٠٠ كيف يبدو الواقع معقولا أو غير معقول سؤال لايهمنى ٠٠ المهم ٠٠ الاهم أن أسأل لمـــاذا ؟ هو كذلك ٠ وبالتأكيد لماذا لا أملك غير الدم والعرق والحلم والكلام المبتور ؟ لماذا تصبح المفارقات معادلـــة لاتنتهـــى الا هكذا : القـــوى والضعيف = السارق والمسروق = الشبعان والجوعان ؟ أهى اذن

بلادة وجود ؟ الله ليس بليدا · الشيطان ؟ يقينا لا أعرفه وربما نفسه يعانى أزمة المعادلة وعجز السؤال ··

معقول أن ينزف الدم حتى الموت ، وأن تتجمد أملاح العرق فى الشرايين ، وأن تجف كلمات التأبين ·· والحلم أيضا معقول أن يختلج فى العيون الرمداء ·· لكنه من غير المعقول ألا يكون قبل وبعد ذلك سؤال حقيقى ·· أهم من الاجابة ··

- ٢ -

المقهى منفى دافىء وسط الشارع ·· محاصر بليلة شتوية قارسة ـ أشباح السيارات تنزلق على القارعة بعد أن تنكسر أضواؤها على زجاج المقهى المضبب ـ الصمت فى الخارج يرتعش مع قطرات المطر ، وينفلت بين الحين والآخر الى قلب المقهى مع لسعة برد خاطفة ـ الصمت لايلبث أن يتبخر فى قهقهة عاهرة أو فى تنهد مكبوت ـ الجميع يجلس والزمن من تلقاء نفسه يعترف بانقطاعه ـ الجميع ينتظر الشىء الذى لاينتظر ـ النوم قبع فى الزوايا يتعرف على المنتظرين بعد أن تتسلل بين الكؤوس والموائد والاقداح ـ حتى الكؤوس تغيرت من ألوانها الصفراء والسوداء أمام الوجوه المالحة المعروقة والعيون الرمداء ـ العيون نفسها تسرق بعضها بعضها ـ الجميع أصبح شيئا واحدا ، الناظر والمنظور ، الجالس والمجلوس ، الشارب والمشروب ، الجامد والمتحرك ··

ـ كيف حالك ؟ كيف قضيت يومك ؟ ·· أنت لا تجيب ·· هل أنت تفكر ·· ليست عادتك ··

ـ لماذا تلح فى السؤال ؟ لماذا وأنت تعرف الاجابة ·· أنه نفس السؤال ، تكرره كلما صادفتنى فى هذا المقهى ··

ـ كيف ؟ ألا تريد أن نتحدث يعنى نعرف كيف ··

ـ كلمة كيف لاتروقنى اليوم ·

ـ لم أفهم !

ـ لانك لاتسأل ·

ـ عن ماذا أسأل ؟

ـ بدأت تقترب الى الفهم ·

ـ كيف ؟

ـ بعدت عن الفهم ·

ـ لماذا ؟

ـ اقتربت من الفهم ·

ـ أفهمني ·· أوه · لست كعادتك ·

ـ بدأت ·· يجب أن نسأل لماذا ·· أن نصرخ أن نأمر ، هل ترى الاشياء معقولة أم غير معقولة ؟ لاتحاول الاجابة فأنا متأكـد من جوابك ··

ـ معقولة ؟! متى كانت ·· تصور أنى حمال ومع ذلك ··

ـ لا تقل تصور ، قل انظر ·· ليس هناك ما يتصور أو يتخيل ·· أنت حمال · تكلم ··

ـ كنت أريد ·· لا داعى ·· انى أشعر بجميع الاثقـال التى حملتها منذ ·· لست أدرى ·· انى أشعر ··

ـ تشعر بسؤال ·· لماذا تحمل البضائع أو الامتعة ··

ـ بل لماذا ؟ الجوع ؟ جوعى أم جوع أطفالى ؟ وأنت أيضـا · هل من الضرورى أن يتصدق علينا الآخرون لكى نعيش ؟ لماذا ؟

ـ هذا هو السؤال ·· والجواب ·

- ٣ -

الغرفة رقم ١٢ تبدو أضيق من قبر الشيطان ـ الملفات المرتبة متقوقعة تصرخ داخل الرفوف ـ الصور المعلقة تدير وجهها الى اليمين ·· ووجها آخر الى اليسار ووجها مخلوطا نحو الفراغ الموبوء خلال الجدران الاربعة ·· بكل حقد ، وبراءة ـ الطاولة فى الركن ـ ملف مفتوح يتمدد فوق الطاولة ببلادة ·· كبلادة المصباح المتعب ، ينظر ، سبق أن تعرف علي ، يشبه جميع الذين أعرفهم ·· أخرس ··

الغرفة أضيق من قبر الشيطان ·· وليس فيها الا الشيطان وأنا ·· أنا الضيف الموقر ·

أنتظر سلخ جلدي قربانا للشيطان ، عادة الضيافة في هذه الغرفة ، أن تصبر ، أن تنتظر الرجل الضخم الذى لايأتى الا حين يأتى ··

الباب مغلقة ، يسندها ظهر رجل آخر ، مأمور أن يحفظ الامانة والا سلخ الرجل الضخم جلده وجلد عياله ـ حارس ومحروس ـ ولو كان يعلم أننى أستطيع الهرب من النافذة منتحرا ، لو يعلم لخلق من نفسه حارسين ، لكنه لايعلم ولن يعلم الا أني هنا للمرة الثانية · الباب والجسم يدفعان الباب ينتفخ بشدة ، الحارس الشرطي ينخلع قلبه أو ينخلع من شروده ، ربما كان يتخيل نفسه فوق الكرسي ينتظر ما أنتظر ··

نظرة خاطفة فيها السخر والكبرياء ، ولسان يريد أن يتحرك بحركة الاصابع بين أوراق الملف ··

ـ أنت سبق أن دخلت السجن لمدة شهرين ·

ـ لا ·· دخلته شهرين قبل وشهرين بعد ··

ـ المهم دخلت ·

ـ وخرجت ·

ـ وسوف تدخله ٠٠ قل لي ، أنت هذه المرة مسؤول عن الاضراب في المعمل ٠٠ والتحريض على العنف والفوضى ٠

ـ نتائج طبيعية ٠

ـ يعني أنك تعترف ٠

ـ لست أدري ما هو الاعتراف ٠ ما هو الاعتراف ؟

صمت ٠٠ السيجارة الاولى بدأت في الاحتراق ٠٠ نظرة عنف٠٠ في عين كلب لم يسمح له القدر أن يكون أسدا ، الفم ينفتح ٠

ـ عليك أن تجيب ٠ فالتقارير موجودة هنا ٠٠ بين يدي ٠

ـ لماذا تريد أن أعترف ٠٠ هل من الضروري أن أعترف ٠ يعني هل سيادتك تعترف بالاعتراف ؟

ـ (٠٠٠)

الصمت ٠٠ القلق ٠٠ العنف يقترب ، اليد تريد أن تمسك بسيجارة ثانية فتنتشر فوق الطاولة سجائر ٠٠

ـ رأسك صلب ٠٠ عليك أن تمضي هنا ٠

ـ أظن الكفاية في امضاء صاحب العمل ٠٠ واذا شئت خذ التفويض مني كالعادة ٠٠

ـ ٤ ـ

الناس كثيرون يتفرجون ٠٠ الفرجة عادة ٠٠ أصدقاء كثيرون أعرفهم ٠٠ صاحبي الحمال الجائع يجلس بهدوء ٠٠ الجميع جالس أو واقف يرهف أذنا صاغية ٠٠

ـ هل أنت تعترف ؟

ـ اعترف بأن عيني اليمنى قد ذهب نورها داخل الظلمة فأصبحت لا إبصر بها جيدا ٠

ـ ليس هذا ٠

ـ آه أعترف أني كنت أنام على الارض مع رائحة البول والعفن ٠٠ كنت أنام لاني لا أنام ٠٠

ـ اسكت عن هذا ٠٠ لست أسأل عن غير التهمة ٠

ـ لا تسألني اذن علينا أن نبدأ بالاهم فالمهم ٠

ـ كيف ؟

ـ لن تفهم ، لانك لا تسأل ٠

ـ عن ماذا ؟

ـ لماذا أنا هنا ٠

★ ★ ★

الناس كثيرون قد توالدوا لم أعد أعرف موطىء قدم من موقع رأس ٠٠ لم أعد أميز العباءات السوداء القابعة امامي من أكوام الحطب ورائي ٠٠ وأذني اختلط فيها الصوت والشفاه ٠٠ سمعت شيئا ولم أفهم ولم أحاول ان أفهم ٠٠ حاولت الحديث وسكت لان الرجل المغلف بالسواد كان يتكلم ، يتكلم ولا أسمع ٠٠ هو مثل الرجل الضخم في غرفة الشيطان ٠٠ لكن الكلمة ٠٠ لا تلبث ٠٠ أن تسمع بسرعة وتنمحي بسرعة في سواد واحمرار القاعة المحتقنة ٠

ـ كلمتك الاخيرة ٠

ـ احترق أيتها الشمعة ٠

قال شيئا ، لم أحاول أن أفهم ٠٠ بدأ الضجيج ٠٠ يد جذبتني وسارت بي ٠٠ خيل الى أني رجعت الى حيث كنت ٠٠ وتحققت أني لم أحلم ٠٠ وتأكدت أني بدأت أومن ٠٠ لكن أعرف مقدار الحياة في نفسي على أن أفقد الحياة الى حين ٠٠ لكن أمطر على أن أبخر ٠٠ أن أتألم ٠٠ الالم ولادة ٠٠ كل ولادة ألم ٠٠

محمد العياشي

مبـارك الدريبـي

غبار في عين الشمس

(أقصوصة)

كانت الاحياء المجاورة لكتاب سيدي رحـال ساكنـة في ذلـك الصباح . وكان غبار ما عالقا برموش السماء وعين الشمس ، فطلعت حمراء وغاضبة فوق الاحياء .

أيقظتني أمي بدفعة في ظهري . طار النوم من عينـي . ولـم أستطع جمع أعضائي المبعثرة والمقطعة بالصلاة وحفظ القرآن ، حتى جاءتني صفعة على قفاي جعلتني أسجد على الارض ، وأخرى على أذني جعلتني من الذين لايستمعون . صاحت أمي : «استيقظ يا بوركابي». دفعة أخرى . صفعة أخرى . وأكلت غضبي وتذكرت قول الفقيـه : ـ وقضى ربك .. ـ أكلت غضبي مرة ثانية كحمار وأنا أحاور نفسي: ـ ليست هذه بأم ـ لا نوم بهذا البيـت . لا أكل يشبـع البطـن . لا لباس ، الا الستر . كل كي لاتموت . أستر عظامك كي لايسخر منك الرفاق : قميص طويل كخيمة ساقطة المدخل . تعب هو الآخر وشبع مني . تقيأ أحشاءه وتمزقت حواشيه فأصبح خرقة بالية فـي اسم قميص . رميته على جلدي . لم أمشط شعري . كان رأسي أجرد وحليقا كسائر «المحضرة» بكتاب سيدي رحال . توضأت ولم أصل . دفعت أمي الاناء برجلها فانهمر الماء على التراب .

ـ هذا نهار أسود يا أماه . ماذا حدث لك ؟..

ـ اذهب الى الكتاب ولا تعد الى النوم ..

ـ انى أتوضأ لصلاة الصبح ••

ـ أنا مستعجلة • عندى موعد مع صديقتى عبوش بالمقبرة •

أبى يبيع الدجاج بالاحياء الاوروبيـة ، يطوف طول النهـار ، تعصر الشمس رأسه ويتعبه حمله • قضى أخى معه ليلة كاملة ليعلمه: ـ بول مدام • با شير مدام ـ • أبى المسكين ، يجـرى ككلب وراء قطعة خبزنا بين الحواجز : الشرطة تنتظره فى كل زاوية شارع ، والذعيرة المالية ثم السجن • هذه الام تربط المواعيد بالمقبرة وبالمزبلة الكبيرة ، عند منعطف الغدير مع صديقات لها ـ تقـول ـ لايهمهـا أأكلنا أو جعنا ، حتى وجودنا لايهمها • تعيش هى لذاتها مع العشاق العاطلين ، قرب الغدير ، بمدينة قزديرية الوجه ، طرقها ضيقـة ، فى الليل ، لاتنيرها الا القناديل ولا يدخلها رجال الامن ولا تعتـرف هى بالقانون • مدينة العشاق العاطلين ، مسودة الوجه والقفا كجزيرة ملعونة •

ـ هل تخرج أم لا ؟

ـ هاأنذا خارج • قتل الله النساء •

ـ أخرج يا مسخوط • سود الله أيامك ••

وتصيح مرضعتى مريم من وراء سياج القصب : ـ مالك يـا حادة ـ • ترد أمى وهى تتصنع البكاء والمظلمـة : ـ يسبنـى هـذا الكلب • اعملى الخير فى الغير • لم أفعـل شيئـا الا اننى أيقظتـه للذهاب الى المسجد ـ • وتعود تصيح مرضعتى بصوت حلوفة نصفها بالوحل : ـ أخرج قبحك الله يا ولد الحـرام ـ • أضم ما بقى فـى صدرى من كرامة وألم ما تناثر من قميصـى على التراب وأخـرج • آه لو كنت كبيرا لدفعت عن نفسى هذه الاهانة • أبى المصلى الطيب يجرى وهو يلهث وراء خبزنا ، وتبذره هذه الام وكم أم ، بهذه الاحياء الوسخة ، على العشاق على شكل هديات • تبقى الاكـواخ فارغـة • الاطفال يلعبون حتى التعب ثم ينامون وهم جيـاع • الامهات عنـد

العشاق العاطلين • الآباء ـ الكرام ـ لايشعرون • أنوفهم لاتستنشق الهواء • الصغار يخافون • وتساءلت : ـ لم خلق الله عقول النساء قبيحة ومعوجة كأرجل الدجاج ـ • لم أجد جوابا • تلك عنايته لايدخل فيها أحدا • لاتكفر يا ولد • أعوذ بالله من الشيطان الرجيم •

كان موحى الشلح مقوسا على اناء الوضوء • بسمل وبصق الماء من فيه • عاتبني بنظرة لانني تفحصته مليا • عمامته الصغيرة على رأسه كبصقة • أجرد الوجه من الشعر • اذا ابتسم موحى شعرت بأنك أمام عذراء • صاح عليوات وهو مكوم تحت سقف خيمة حماه بها محسن من آبائنا الذين يطاردون تحت كل سماء قطعة الخبز الملعونة • أمامه قفته المملوءة بقطع الخبز اليابس • نصفه الاسفل عائم في قاذوراته الممتزجة بتراب يابس • يسيل لعابه من فمه في ابتسامة بلهاء • كثيف الشعر ومخيف السحنة • عليوات بركة من بركات حينا • كلنا نحبه وندفع عنه الشر في بعض الليالي • لوحتي الكبيرة تحت ابطي كانسان ميت • هذه هدية من صديقي موحى الشلح • صاح عليوات : ـ قتل الله النساء ـ اذا غضب الله على عبد ابتلاه بامرأة ـ • بصق موحى الماء من فمه وابتسم •

ـ أتسمع • عليوات يقول دائما أشياء معقولة •

ـ الزواج فرض •

ـ نعم • لكن حال الدنيا شيء آخر يا ابن دربنا • انك صغير •

كنت أفهم براس شيخ كبير في جسدي هذا الضعيف • موحى غير متزوج • موحى يعتقد بأن المرأة شريرة ، تفرق الاحباب ولا تهدأ أبدا • عشق موحى دكانه وموازينه والسجادة والمسجد • في بعض الليالي عندما تعصره الرغبة ، يفتح مصراع باب دكانه ، لاحدى نساء الليل المتجولات ثم يرميها ليخرج الى الحمام ، حتى لاتفوته صلاة الفجر في السحر الجميل • استقام موحى الشلح وسالم العالم والناس ، فعاش سعيدا لاينعته أحد •

...... كانت المزبلة الكبيرة التي تأكل من سياج كتاب سيدي رحال ، قد زاد حجمها في هذا الصباح ، وارتفع بخار قاذوراتها تحت أشعة الشمس الدافئة • وذهب الشارع المتقطع بين حمام الجابري وعمارته الكبيرة التي تخلق المزبلة كلما ماتت ، ليتمدد الى باب المقبرة • من الباب المنقوش ، خرجت الشابة : ح • شعرها الاصفر الجميل في ضفيرتين مهملتين على كتفيها • صدرها متفتح ، ولوحتها الصغيرة التي لاتكتب عليها حرفا واحدا ، بيدها • كانت تقفز في خطوها • فهي تأتي الى الكتاب لتجد متعتها بين الاطفال و «المحضرة» • حينئذ ودخلت من الباب الخشبي المهترىء الذي تتعلق به أعشاب ونبتات حلالة المتآكلة من فعل الشمس • كانت جميلة وضعيفة العود ، ذات نظرات حالمة كالعرائس • كنت متعبا وحزينا ، وشعرت بضيق في جسدي لانني لم أصل في هذا الصباح • يقول أبي : ــ الصلاة تذهب الحزن وتهديك النشاط والسعادة ــ • كان بداخل الكتاب ظلام الصباح غير المنقشع ، جاثما في الزوايا • وحوض الماء البارد والمثلج الذي نمحي به الالواح ، هادئا كعين ابليس تتأمل السماء وهي حزينة • الفقيه سيدي رحال جلس فوق السجادة كقط غاضب ذي ذيل طويل ، شبع أكلا ونوما ، رغباته واجبات على أعناق الرجال وسكان الاكواخ والاحياء المترامية الى طريق عرصة القاضي • التفت الفقيه ، كحارس الى باب الكتاب • التفتنا نحن كدميات • كان المغمض يجر رجليه الداميتين والسلسلة والقيد يأكلان منهما • كان يمشي وهو يتمايل ليخفف من احتكاك القيد بالجروح • صاح الفقيه وهرول المغمض خائفا • تداخلت أجسامنا نحن في خوف وراء ألواحنا • كان المغمض ابنا لاحد الاغنياء • كانت لابيه حافلة تقل المسافرين الى أسواق الناحية ، وتجارة ناجحة في الدجاج والصوف والبقر • «المغمض» اسم يلتصق به لان عينيه دائما مغمضتين ، كأنه نائم أو في غيبوبة لاتنتهي • كان أبوه يحب القرءان ويعز أهله ، لذا كان يردد على مسامع الفقيه والحاضرين من آباء المحضرة : ــ أقتل أنت يا فقيه ، وأنا سأدفن ولد الكلب • اذا لم يحب الكتاب الكريم ، فما عساه

سيحب ؟ • كان الفقيه يحرك رأسه المعمم ويفرك يديه فرحا بهذه السلطة الجديدة وللنقود والهدايا الكبيرة ، عندما يحفظ المغمض ويتخرج على يدى الفقيه فى فصل الصيف • عادة تكون حفلة التخرج فى فصل الصيف ويشتد الحر ويطلع القمر جميلا فى سماء الاحياء المشتعلة رجولة وتتنهد الصدور فرحة التخفف من الثياب •

كان المغمض فى هذا الصباح غاضبا • كان يريد أن يهرب كعادته الى الغاب • غير أن الفقيه بعث حميدة الاقرع الذى يفوقه فتوة وقوة عضلات • ثم ان حميدة الاقرع كان محملا بمهمة من طرف الفقيه ، فكان قويا وغاضبا أكثر • لم يستطع المغمض مصارعته • فالمغمض ، رغم السلسلة والقيد اللذان يعوقانه فى الحركة ، كان يغضب كلما بعث الفأيه أحدا فى طلبه • كانت أم المغمض تبعث للفقيه بالهدايا الثمينة ، كى يرفق بابنها ولا يرهقه بالحفظ والصلاة والحضور المستمر • كنا نحن نخاف من المغمض ، لانه كان ضعيف العود قويه ، خبر فن المصارعة والقمار والتدخين ونساء الماخور الجاثم أمام ساحة كتاب سيدى رحال • كان قويا لانه يملك النقود كأبيه •

وقف الفقيه سيدى رحال • لم ذيل جلبابه الابيض • سوى عمامته على رأسه الكبير • كان رداؤه الاسود يضم الكتفين النحيفتين • عقد ما بين عينيه قسوة وسلطة وتهددنا بنظرة قاسية ان لم نحفظ ، لان المساء سيقترب وسيضع النهار وتأتى حلقة الذكر التى يشارك فيها بعض المحضرة الذين لهم حظوة فى الكتاب ، وفى صدر الفقيه حب لآبائهم الذين يملكون • صاح سيدى رحال على أخيه الفقيه الاعور — خلافة — • هرول الثانى وهو يلوك كلاما بين يدى أخيه الكبير • صاح فيه ثانية • اهتز خلافة الذى نحبه نحن المحضرة وهو يحبنا : — احترس من نفسك • كن صارما مع هؤلاء البغال — • جرر أذيال أثوابه • أغلق الباب بجسمه الطويل ثم خرج ، فانفرج النور شيئا ما وساد سكون هادىء • جلس خلافة على السجادة بمكان أخيه الكبير • أخرج من جيبه طاقية صوف وبدأ يتمم غزلها • صاح فينا

ثم ابتسم · ترددت أصواتنا كخلية النحل ، نشيطة ، تطن وتطن · عيناه على مدخل الابرة الخشبية ولسانه يرتل القرآن · كان الصباح دافئا وكنا نحن نشعر بحرية ما في هذا الجو البسيط ·

نظر المغمض الى صحبه عمرو وعثمان · ابتسم المغمض · غمز بطرف عينه النائمة الفتاة : ح · تضرج خدها الناعم بالحمرة · غطت وجهها بلوحتها الخشبية التي لاتكتب عليها حرفا واحدا · ابتسمت لنفسها · وفي نفسي كان غضب قوي ، يرتع ويوقع صداعا في رأسي كأنه عازف طبل · ترى هل ألقي القبض على أبي : ــ باشير مدام · بول جولي مدام ــ · تقوس شعاع الشمس الغاضبة ومزق ظلام الكوخ الخشبي بسهامه القوية من فتحة الباب · تثاءب خلافة وهو يدفع رأسه الى الوراء ، كأنه تعب من حمله · تناوم ، فسقطت الابرة الخشبية والطاقية من يده · ابتسم المغمض · ضحك صحبه · طار خيالي بعيدا الى كوخنا الفارغ · خرجت الام الى المقبرة : ــ تقول ذلك ــ وبقي الكوخ وحيدا كطفل غريب · لا أحد يشعر بالسعادة في حينا · وعليوات ما علاقته بسكان الحي المتواضع : ــ ذلك سر الله في خلقه ــ · يقول أبي المتواضع : ــ اذا ألم بك غضب كريه ، فابك على نفسك اللوامة ــ · تسلل طفل وخرج الى حفرة بزاوية الكوخ · خفت الطنين وارتخت الاصوات · غضبت الشمس التي أصبحت عينها بيضاء ذات رموش داكنة الحواشي ورمادية · نهض خلافة لينام بالكوخ الذي احتواه عندما كان أعزب ، وقبل أن يتزوج أخوه الفقيه رحال · هلل المحضرة وتسلل بعضهم · استوت الشمس في صدر السماء ، وابتسمت وهي تمشط شعرها كفتاة بكر · كان بي شوق الى كوخنا · كان الكوخ فارغا · وكنت أنا حزينا · لم أصل هذا الصباح ولم آكل · وترامى الى أذني صوت عليوات وهو يصيح في فضاء الحي : ــ قتل الله النساء · الدنيا زفت · خذ سيد الرجال تجده كلبا · بع كلبا واشتر كلبا · قتل الله النساء ــ · وقضم مني الجوع آخر قضمة بأسنانه الحادة ، تناومت وقررت البقاء ببيت الله،

كما يقول أبى عن الكتاب · الدنيا حر · وفى الخارج كانت الشمس محرقة والكوخ فارغا والام غائبة · قفز المغمض وتجمهر هو وصحبه حول الفتاة ، ستروا جسدها الجميل بالالواح على شكل سياج ، وأكلوها · كانت الصغيرة تصيح وتبكى · وكانوا هم جياع ؛ ضربنى أحدهم بلوحة حادة السن ، فسالت قروح رأسى دما غزيرا ·

عادت الشمس لتعمر الحى النائم فى غبشة المساء المحرق · كنت أجر أذيال قميصى · كانت مؤخرتى تحترق من أثر سوط الفقيه رحال · ربطنى الفقيه · أشعل تحت جسدى النار ورمى على النار الملح المسحوق · اشتعلت النار فى جلدى · كان السوط يأكل منى · وكان أبى تأكل منه الشوارع والشمس · بكيت بحرقة طفل صغير · كذبت على ألسنة وأشارت أصابع الى صدرى بتهمة الاعتداء · حملت الفتاة الى بيت أبيا المالك الغاضب · ضربت حتى الشبع ، طردت ثم رميت كنفاية · كانت الشمس غاضبة · وكان الخبر قد سبقنى الى الحى · ضمنى موحى الشلح الى صدره ومسح دموعى · صاح عليوات : ــ قتل الله النساء ــ · وجاء أبى مهرولا من رأس الشارع المنحدر من ساحة الخبازات الى زقاقنا · كان الحر يخنقه من عنقه وطار الغضب من وجنتيه وعينيه المحمرتين · حملنى بين يديه · كان صدر أبى واسعا ودافئا ·

أبى ــ : أنظر يا فقيه السوء الى هذه العملة ··

الفقيه (خائفا) ــ : لكنه اعتدى على ابنة الملاك الكبير ··

صوت عليوات : ــ كذاب ·· كذاب ··

تجمهر الاطفال والنساء وجاء الملاك الكبير يجر غضبه وأملاكه فى صدره · تسللت الفتاة الصغيرة وقالت للفقيه ولابيها : ــ لا ــ برأسها · اصفر وجه الفقيه · مسح أبى رأسى ، وغضب الملاك الكبير وذهب الجميع الى بيت المغمض · كانت الفتاة تجر أبيها من يده وهى تنتحب ·

في الغد أدخلت الى مدرسة كان يرابط بها جنود السينيغال. ودعت الكتاب ولم أودع الكتاب والصلاة . وفي المساء اشتعلت النار الجائعة في مدينة العشاق العاطلين . كانت الشمس تغتسل كامرأة وكان عليوات يصيح في وجهها ويبصق : ــ قتل الله النســاء ــ . كنت أبتسم عائدا من المدرسة . كان موحى الشلــح يتوضأ وقــد يقرفص كقطة شهية وجائعة . نظرت اليه مليا ، فقال : ــ اخفـض بصرك يا ولدي ــ . لوح لي عليوات بيده تحية . ابتسمت . قــال موحى الشلح : ــ طارت مدينة العزاب قرب المقبرة . آه لو قلت ذلك من زمان ــ . أخفضت رأسي . وصحت مع عليوات في صوت واحد : ــ قتل الله النساء ــ . بصق موحى الشلح الماء من فيه كدمية قديمة. رفع أصبعه الى السماء . كانت الشمس غاضبة كامرأة مطلقة. وكانت بجفنيها قطرات دمع من غبار أسود ..

القنيطرة : مبارك الدريبي

هديــة للمشتركيــن

يخول الاشتراك السنوي في مجلة «أقلام» لاصحابه هدايا من «منشورات أقلام» يختارونها بأنفسهم من قائمة الكتب التي ستضعها المجلة رهن اشارتهم في نهاية السنة .

سنة المجلة عشرة أعداد .

خير الدين محمد

التيـــــــــــه

(أقصوصة)

١ ـ الرجـل

وسط المدينة توقف ‥ نظراته تريد أن تنطق ، تريد أن تقول ان شيئا ما هناك ‥ شيئا يحدث فى الداخل ‥ فالعيون حين يعجز الكلام ، تعبر ‥ عيوننا جميعا تعبر فى حالات خاصة ، حالات الشرود ‥ وقف الرجل هناك ، شىء ما غير عادى فى وقفته ‥ عيناه الجاحظتان تنتقلان الى ساعة البرج المعلقة ٠

من خلال الساعة الكبيرة كان يرى الهزيمة ‥ توقف ، ظل ينتظر ، ظل شاردا ‥ الساعة المعلقة فوق البرج تعلن التيه ‥

ـ الشرود يأتى حين لا ترغب فيه ٠

لملم ذلك بشفتيه ‥ ومرة أخرى غرق فى شروده ‥ أحس بدوار هيستيرى ‥ قعد الى الارض ، كل ما حوله هوس ، شرود ، غثيان ‥ أدخل أصبعه فى فمه ‥ حاول أن يخرج شيئا ٠ مرة أخرى حاول ‥ كل شىء فى الداخل جامد ‥

ـ ما علاقة الهزيمة بالشىء الجامد الذى لايريد أن يخرج ؟

تململ ٠ حك شاربه ٠ فك ربطة عنقه ٠ دسها فى جيبه ‥

ـ ما الفائدة ؟

شم الهزيمة بكل عنفوانها ٠٠ حرارة شمس بداية الصيف جاءته بالرائحة ٠٠ الهزيمة حين جاءت لم تعلن ٠٠ تعلقت عيناه بساعة البرج ، منذ مدة تعلق مسمعه فى نفس اللحظة بجهاز الراديو ٠٠ بلع ريقه ٠٠ مرت سيارة مجنونة ٠٠ حملت اليه التراب ٠٠ رائحة التراب أعطته اليقين بأن الارض فى مكان ما تعيش مخاضا من فرط الاهتزازات ٠٠ التفت يمينا ٠٠ التفت يسارا ٠٠ أماما وخلفا ٠ كل شىء تعفر بالهوس والتيه ٠٠ كل شىء مسه الغيث ٠٠ تعلقت عيناه بساعة البرج ٠٠ الساعة وحدها تسير منضبطة لانها تريد هى وحدها تعطيه الاحساس بالهزيمة ٠٠ والناس أين الناس ٠ أين الرجال ٠٠ ربما هم ينامون فى بالوعات الماء من فرط العودة الى التاريخ ٠٠ والى الهزيمة ٠٠

شمس الصيف ، بداية الصيف ، هى الاخرى تملى عليه كثيرا من الخرافات ٠٠ وحتى هذا الصباح عندما قرأ عناوين الصحف كانت كلها مكتوبة بخطوط كبيرة سوداء ، تعلن فى تحدى تاريخ الهزيمة ٠٠

والاجتماعات ماذا أفادت ٠؟ والارض تحترق ٠٠ لا شىء يعلن الطمأنينة ٠٠ فالخيانة امتدت الى أى مكان ٠٠

فكر قليلا ٠٠ تعلقت عيناه الجاحظتان بساعة البرج ٠٠ هى وحدها تعطيه الشعور بالهزيمة ، تشنجت أعصابه ٠٠ لحظتها أدخل أصبعه فى فمه ، لاشىء تدفق ٠٠ فالخيانة امتدت الى بيته ٠٠ هو يشعر بهذا ٠٠ لا شىء تدفق ، سرح ببصره فى الفضاء الكثيف ، تذكر خيانة البيت والهزيمة ٠٠ استند الى شجرة قديمة ٠٠ الارض هى أيضا قديمة ٠٠ وضع رأسه بين يديه ، احمرت عيناه ٠٠ أدخل أصبعه فى فمه ، قبل أن يتم حركته الآلية ، تدفق شىء ما ٠٠ الهزيمة والخيانة ٠

كانت ساعة البرج تسير ، وفى الجهة الاخرى من الشارع وقفت امرأة تتفرج ٠٠ كانت تضحك ٠٠ والخيانة خلفها ٠٠ وأمامها ٠٠ والهزيمة خلفنا جميعا ٠٠ وأمامنا جميعا ٠٠

من ينقذ الارض ؟ كفى الخيانة ..؟

قال الرجل وتابع عملية التيه .

٣ ـ المـرأة :

حينما خرجت من بيت زوجها ، عرجت على شقة صديقهـا .. الخيانة تمارس فى وضح النهار .. لولا الخيانة ما كانت الهزيمة .. اهتزازات الارض ولدت كثيرا من اللقطاء .. الخيانـة لا تعطـى الا اللقطاء ..

كانت المرأة تسير .. عيناها الجاحظتـان تنطلقـان بشبـاب وجمال .. حركاتها تؤكدان أنها تتقن فن الخيانة .. لولا الخيانة ما كانت الهزيمة .. لولا الخيانة ما كان اللقطاء .. توقفت ، أحست بدوار عنيف .. عيناها الجاحظتان تتعلقان بساعة البرج .. ها هى اهتزازات الارض تتراءى لها .. وها هو البرج ماثلا أمامها ..

ـ لولا الخيانة ما كانت الهزيمة .

لملمت ذلك بشفتيها .. زوجها فى الدار ميت ، حى .. هـو الآخر منهزم .. خيانتها هزمته .. الهزيمة فظيعة .. الارض لاتخون .. وكلنا منهزمون .. تشنجت أعصابها .. احست نزيفا داخليـا جاءها صوت من بطنها ..

ـ لولا الخيانة ما كنت غير شرعى .

زادت حركاتها الهستيرية .. أدخلت يدها فى فمها .. لاشىء انقذف .. كل شىء جامد .. الهزيمة جمدت الحياة والاشيـاء .. كانت شمس الظهيرة لبداية الصيف تخفى بين خيوطها هزيمة الرجال والنساء .. فالارض احترقت .. وما عاد فوقها غير اللقطاء ..

ظلت عيناها معلقتين بساعة البرج ، ساعة البرج هى وحدهـا وشمس بداية الصيف يعرفان الحقيقة .. مر بائع صحف غير بعيد

عنها ، تأملت عناوين الصحف ·· كان السواد يفضح كل شيء ·· تذكرت كيف انها عاشت نفس اللحظة ساعة الهزيمة قبل أن تصبح زوجة ·· الذى حدث لايحتاج الى تبيان ·· لنساءل الارض عن بقايا الاطفال والرجال والنساء ·· الارض اهتزت كثيرا ، احترقت كثيرا ، صابرة ما تزال الارض ، هى لاتعرف الخيانة ··

أزالت يدها من فمها ·· تعلقت عيناها بساعة البرج ·· لملمت :

ـ لولا الخيانة ما كانت الهزيمة ·

بطنها يحترق ·· تتلوى ·· يأتيها صوت من مكان ما يحترق فيها :

ـ لولا الخيانة ما كان زوجها الان ميت ، حى ·

أصابها دوار ·· لا شيء فى المدينة يؤكد أن الدنيا بخير ·· أناطت لثامها عن وجهها ، شدت بطنها ·· يحدث المخاض فى أى مكان من المسؤول ·· هذا الذى سوف يرى الارض لاتعرف هويته ·· الخيانات الكبيرة لاتحصى ، والهزائم الكبيرة لاتحصى ·· من قال ان الدنيا بخير ، فليسأل ساعة البرج ·

ـ لايهم · هويته ستكون هى بداية شمس الصيف ··

الهزيمة وحدها تعلن انه ليس رفيق الشمس ·· فالخيانة هزمت الرجال ·· والنساء ·· الاطفال ما عرفوا من أين اهتزت الارض ·· أدخلت مرة أخرى يدها فى فمها ·· ساعة البرج تتحرك كما تشاء ·· أصابها دوار ·· أحست أن شيئا ما يريد أن يقفز من تحتها ·· وشيء ما يريد أن يندفق من فمها ·· لم تستطع حبس الحركتين ·· هوت على الارض ·· كان رجل فى الجهة الاخرى من الشارع يتفرج ، تحرك ، ما همه الاحتراق ·· الخيانة عصفت بكل الارض ·· كلنا منهزمون ·· ما كان ضروريا أن تسقط المرأة على الرصيف ·

كانت ساعة البرج تدور ٠٠ كانت شمس بداية الصيف تذوب ٠

ــ اللعنة تنزل بالارض ، من ينقذ الارض ٠٠؟

قالت المرأة ، وكان التيه ٠

٣ ــ الشرطي :

أبواق السيارات أطلقت في جنون ، والشرطي في غير انتباه ٠٠ الشروذ حمله الى مكان ما ٠٠ فالارض احترقت وتحترق ٠٠ مفترق الطرق الذى يطل على ساعة البرج مزدحم ، السيارات تريد أن تقطع الشارع ٠٠ كانت اشارات الضوء الاخضر قد أشعلت في كل اتجاه ٠٠ لا أحد يعرف دوره في المرور ٠٠ ثم تنطلق الابواق ، ويتبدل الضوء ٠٠ الاحمر يوقف كل حركة ٠ كان أصبع الشرطي موضوعا على زر في الجهاز ٠٠ عيناه الجاحظتان تلتهمان ساعة البرج ، وجهه بدا محتنقا أكثر من ذى قبل ، شعر بالاحتراق ٠٠ الذى مضى لاينسى ٠٠ والجرح يعود باستمرار ٠٠ ساعة البرج أعطته ذلك الشعور ٠٠ فمنذ ماض غير مغرق في القدم ٠٠ كان الشرطي يحترق في نفس المكان بحرارة شمس بداية الصيف ٠٠ ما كان ممكنا أن تموت الاشياء ٠٠ فالشمس وسط السماء تعلن بداية هزيمة قديمة ٠٠ التاريخ لا يكذب ٠٠ ونظرات الشرطي الجاحظة لاتكذب ٠٠ أبواق السيارات تتعالى ٠٠ السيارات تزدحم ٠٠ يشتعل الضوء الاخضر ، يكثر الازدحام ٠٠ يشتعل الضوء الاحمر ، يكثر الازدحام ٠٠ والشرطي تائه ٠٠ ما في الذاكرة يدفعه الى التيه ٠٠

وضع الشرطي أصبعه في فمه ٠٠ فمه جف من اللعاب ٠٠ أدخل أصبعه من جديد ٠٠ كرر العملية ، تكرار العمليات قد يأتي بالمنتظر ٠٠ أخذ العرق يتصبب من جبينه ليجعل وجهه مبتلا ، ما في الذاكرة أصابه بدوار ٠٠ عيناه جاحظتان متعلقتان بساعة البرج ٠٠ كل الذين داخل السيارات انتبهوا الى ساعة البرج ٠٠ تعلقت بها عيونهم ٠٠ جحظت العيون ٠ أصابهم الدوار ، أصابهم الهوس ٠٠ التاريخ حين

يعود يجرح · والساعة أعلنت تاريخ النكوص ·· وحرارة شمس بداية الصيف عادت ترافق التاريخ ·· ها هو الواقع يطرح نفسه ، لم يتحرك الشرطى · أدخل أصبعه فى فمه ، لم يقذف غير المخاط ، بطنه يتمدد ويتقلص ·· عصارة الهزيمة تتحرك داخل البطن ·· مر زوجان من بلاد الضباب ·· توقفا بجانب الشرطى ·· كان الشرطى شارد الذهن ، الشرود هو البديل ·· سألته الزوجة :

— S'il vous pait je voudrais le boulevard de la Victoire

ظل الزوجان واقفين ·· لم يتململ الشرطى ·· شارع النصر ضاع منذ مدة ·· خلف ضياعه كانت الهزيمة ·· ظل الرجل وزوجته واقفين ·· قبل أن يتحركا انتبها الى شرود الشرطى ، وشرود الناس وجمود السيارات ، قالت الزوجة :

— Mais, ils sont fous !

قال الزوج :

— C'est la nausée arabe.

تحركا ·· كل شىء محتمل ·· الحمق والغثيان ·· لا داعى للهروب ، فساعة البرج كانت تعلنهما ، وشمس بداية الصيف كانت هنا ··

تشنجت أعصاب الشرطى ·· تبول من فرط الدوار والهوس لذلك لم يكن بحاجة الى أن يضع أصبعه فى فمه مرة أخرى ··

كانت اشارة الضوء الاحمر والاخضر فى كل اتجاه ·· كانت ساعة البرج تتحدى الاشياء وتتحرك ··

ثمة الغثيان ، والحمق والتيه ·

ـ من ينقذ الارض ·· من يصحح التاريخ ؟

٤ ـ الاذاعات :

ـ اذاعة صوت العرب : (ليكن فى علم الجمهور الساهر فى أوبيرا قصر النيل أن الراقصة «ميمى» ستقدم أحدث رقصات هز البطن ·· احجزوا تذاكركم) ·

ـ اذاعة لبنان : (ستعرف ساحة بيروت الكبيرة «كرنافـالا» يضم كل الذين يحتفلون بعيد ميلادهم الليلة ·· سينقل الكرنفـال على شاشة التلفزيون) ··

ـ اذاعة عمان : (لن تسمح لاى فدائى أن يدخل ترابنـا ·· سنفتك بكل العابثين) ·

ـ اذاعة الشرق الاوسط : (لقد بيعت كل تذاكير حفل الفكاهى (س) والراقصة (م) ·· مكان الحفل شاطئ «لاكورنيش» · البدلة السوداء ضرورية · الويسكى سيكون بالمجان · أقدم على هذا التبرع المثرى (و) ·· الاسكندرية ترحب بكم) ·

٥ ـ استـدراك :

فى كل مكان دوار من نوع خاص ·· الهوس من حق المسحوقين ·· والآخرون ؟

رقصة هز البطن هناك تلغى الهزيمة من حسابها ·· والمحتفلون بعيد ميلادهم يحتفلون بالهزيمة ·· والناس فى كل مكان سكارى ، «وهولاكو» الجديد فى عمان يتوعد ·· والهزيمة واحدة ·· والـذى لايتفرج على رقصة البطن يتفرج على الشيخات ··

نماذج تدين العقلية العربية فى كل مكان ·

ـ من يعيد الارض ؟

فالقياء آخر ما تبقى لهم ·

٦ ـ هامش :

ها هو الرجل قد تحرك ‥ عاد الى وعيه ‥ قصد بيته ‥ قصد براكته الصفيحية ‥ أطل من بعيد على الحى ‥ لم يصدق أن ذلك حدث بالفعل ‥ كان الدخان يتصاعد فى كل مكان ‥ جرى مولولا ‥ صرخ ، بكى ، البكاء هو وحده الذى احتمى به ‥ أما النار فقد فعلت فعلتها ‥ فشمس الصيف ذبت الى هذا المكان ، وهذه المرة لم يكن ضروريا أن يضع أصبعه فى فمه ‥ ارتمى وسط النار‥

الهزيمة تعلن عن نفسها ٠

ـ من ينقذ الارض ؟

القياء ما عاد يجدى ٠

تحركت المرأة ‥ كان شىء ما من تحتها يريد أن يقفز ، دخلت البيت ، كان الزوج منهوكا ، شاحبا ، ميتا حيا ، رمت بشىء من تحتها ‥ قطعة لحم بلا هوية ‥ الخيانة كانت وراء الذى حدث والزوج لا يعلم ٠

التفت جهته ‥ كان جثة هامدة ، لذلك لم تقاوم كثيرا لآلام بطنها ‥ سقطت فالقياء ما عاد يجدى ‥

رجل وامرأة هامدان ‥ وبينهما قطعة لحم تعلن الخيانة ٠

ـ لولا الخيانة ما كانت الهزيمة ٠

تحرك الشرطى الى جهة ما ‥ عندما دخل الى المركز ، أبلغ فى الحين انه فصل من عمله ‥

شهادة أخرى عن الهزيمة ٠

لم يقاوم ‥ أخرج قطعة حديدية كانت تتدلى من جانبه الايمن ‥ نفذ العملية ‥ كل شىء ممكن الحدوث ‥ اندهش الآخرون ٠ فالرجل لم يكن بحاجة الى أن يتبول ‥

ها هي ساعة البرج لم تتوقف .. وها هي وحدها تعلن الهزيمة .. وها هي المدينة كلها غارقة في الظلام .. الضباب غطى الافق . كل شيء أصبح كثيفا .. الصيف والضباب الكثيف .. كـل شـيء ممكـن .

سكنت المدينة .. كانت ساعة البرج وحدها مضيئة ، كانـت تتحرك ، في تحركها يتحرك التاريخ .. كانت تتحرك لانها لا تعرف ان تتقيأ ..

ـ كفى من الخيانة .. من ينقذ الارض ؟

فالتيه في كل مكان ..

سطات : خير الدين محمد

انتظـروا قريبـا :

المجلـة الصحيـة